

أوراق

من
قَمَجٍ وَحَنِينٍ

شعر

أفين بوزان

۹۹
برِ اوراقِ
مسجدمحج و حنین

ایفین بوزان

أَكْتُبُ لَأَنَّ الْحَنِينَ لَا يَجِدُ وَطَنًا يَاوِيهِ ..
وَلَأَنَّ بَعْضَ الْأَرْوَاحِ
خُلِقَتْ لِتَتْرَكَ أَثَرَهَا عَلَى الْوَرَقِ ..
كَمَا تَتْرَكَ الرِّيحُ أَثَرَهَا عَلَى حَقُولِ الْقَمْحِ.

الإهداء

إلى كل قلبٍ حملَ القمحَ في روحه، ولم يجدْ خبزاً لحنينه...
وإلى الذين يكتبون ليبقوا، لا ليقروا فقط.
وإلى أولئك الذين علمتهم الحياة أن الكلمات قد تكون وطناً مؤقتاً حين تضيقُ
الأوطان.

أهدي هذا الديوان...
إلى الحنين حين يصبح لغهً ..
وإلى الصمت حين يفيضُ بالشعر ..
وإلى كل امرأةٍ حملت في قلبها حقلاً من الغياب ..
وظلت تنبتُ منه الضوء.

المحتويات

العنوان	الصفحة
مقدمة	١٠
١- على ضبقتي الحنين	١٢
٢- كأننا عشرون مستحيلاً	١٦
٣- لا شيء يوجعني سوى غيابك	٢٢
٤- تراتيلُ القمح الأخير	٢٥
٥- امرأةٌ يعبرها الشتاء	٣١
٦- لا تعبروا من هنا	٣٤
٧- امرأةٌ من أيلول	٣٨
٨- امرأةٌ تؤجل قلبها	٤٠
٩- حين ينام المطر في عيني	٤٧
١٠- حين لا يشي الدمع	٥١
١١- وطنٌ بحجم الروح	٥٤
١٢- بين أغصان الذاكرة	٥٩
١٣- لا ترحل يا وجه صباحي	٦٥
١٤- علمني كيف أنساك	٧٥
١٥- أنا ابنة تاريخ منسي	٧٧
١٦- قبل أن أصبح غيباً	٨٣
١٧- ضحكةٌ في جنازة الفجر	٨٦
١٨- قصيدي لا تنتهي على فم الرحيل	٩١
١٩- لن تُدفن أحزاني الكاملة	٩٩
٢٠- كلما صقلت قلبي، ازداد نزيهاً	١٠٢
٢١- عشقٌ لا تطفئه النهايات	١٠٤
٢٢- مرثية امرأة نسيت كيف تعود	١٠٦
٢٣- أموت قليلاً كلما عاد المساء	١١٦
٢٤- حين اخترتُ الرحيل	١٢١
٢٥- استراحةٌ جنديّ مجهول	١٢٦
٢٦- الأحزان الكاملة	١٣٠
٢٧- ليتني حجراً لا يعرف الحنين	١٣٤
٢٨- أسألي أين كرامتي	١٤٠
٢٩- في الشتاء الذي لم يأت بك	١٤٤

- ١٥٠ ٣٠- وصيةُ المطرِ الأخير
- ١٥٣ ٣١- وصيةُ امرأةٍ لا تركع

مقدمة

في المسافة التي تفصلُ بين الذاكرة والنسيان، وبين ما نكونه وما نحاول أن ننجو منه، يولدُ هذا الديوان كأنه أثرُ خطوةٍ لم تكتمل، أو اعترافٌ تأخر طويلاً حتى صار أكثر نضجاً من صاحبه.

«أوراقٌ من قمحٍ وحنين» ليس كتاباً يقرأ بقدر ما هو حقلٌ يتأمل؛ حقلٌ لا يرى بالعين وحدها، بل يلمس بما تبقى في القلب من قدرةٍ على الإصغاء للأشياء البسيطة حين تتحول إلى أسئلةٍ كبرى. هنا لا تقف الكلمات في صفوفٍ منتظمة كما تفعل في النصوص الباردة، بل تتناثر مثل سنابل قمح خرجت لتوها من يد الريح، تحملُ شيئاً من الضوء، وشيئاً من التعب، وشيئاً من الحياة التي لم تكتمل.

هذا الديوان محاولةٌ للإنصات إلى ما لا يقال؛ إلى ذلك الصوت الخافت الذي يسكن بين ضلوع الأشياء، حين تنسى المدنُ أسماءها، وتستعيد الحقولُ لغتها الأولى، وتصبح الذاكرة أكثر حضوراً من الواقع نفسه. إنه ليس احتفاءً بالحنين فقط، بل محاولةٌ لفهمه: ذلك الكائن الذي لا يرحل ولا يبقى، بل يظل معلقاً بين الاثنين، كأنه ظلُّ إنسانٍ فقد طريقه ولم يفقد إحساسه بالعودة.

في القمح هنا، ليست الأرض مجرد خلفية صامتة، بل ذاكرةٌ كاملة؛ ذاكرةُ الأمهات اللواتي يعرفن معنى الانتظار، وذاكرةُ الأيدي التي تعبت وهي تمنح الخبز اسمه الأول. القمح ليس رمزاً للحياة فحسب، بل لكرامتها أيضاً، لتلك البساطة العميقة التي تجعل من رغيْفٍ صغير حدثاً كونياً، ومن الحقل سيرةً كاملة للإنسان وهو يصارع من أجل البقاء دون أن يفقد إنسانيته.

أما الحنين، فهو ليس شعوراً عابراً في هذه الصفحات، بل بنيةٌ داخلية للنصوص، كأنه المادة التي كتبت منها القصائد قبل أن تكتب بالحر. الحنين هنا ليس إلى مكانٍ محدد، بل إلى حالةٍ مفقودة؛ إلى زمنٍ كان فيه القلب أخف، وكانت الأشياء أكثر صدقاً في بساطتها الأولى. إنه الحنين إلى ما لا يمكن استعادته، وإلى ما يجعل الكتابة ممكنة في الوقت ذاته.

تتشكل قصائد هذا الديوان من تقاطعٍ خفي بين الأرض والغياب، وبين ما يثبتنا وما يبعثرنا. لذلك لا تسير النصوص في خطٍ مستقيم، بل تتعرج كطريقٍ ريفي يمر بين حقولٍ لا تنتهي، حيث تتجاور الفرحات الصغيرة مع الانكسارات الصامتة، وحيث يبدو الضوء أحياناً كأنه شكلٌ آخر من أشكال الألم الجميل.

في هذا العمل، تحاول اللغة أن تكون أقل ادعاءً وأكثر صدقاً؛ أن تقترب من الأشياء كما هي، لا كما نرغب أن تبدو. لذلك قد نجد في بعض المقاطع ما يشبه الاعتراف، وفي بعضها الآخر ما يشبه الصمت الطويل الذي يسبق البكاء، وفي كثير منها ذلك التردد الجميل الذي يرافق الإنسان حين يكتب نفسه دون أن يملك يقيناً كاملاً بما يكتبه.

«أوراق من قمح وحنين» هو أيضاً محاولة للنجاة من القسوة، لا عبر إنكارها، بل عبر تحويلها إلى جمالٍ قابلٍ للتأمل. فليس كل ما يؤلمنا يجب أن يختفي؛ أحياناً يكفي أن يتحول إلى لغة، إلى صورة، إلى قصيدة، كي يصبح أكثر احتمالاً، وربما أكثر فهماً.

إنه ديوانٌ لا يدعي الإجابة، بل يفتح الأسئلة على اتساعها: كيف يتحول الفقد إلى كتابة؟

وكيف يمكن للذاكرة أن تصبح وطناً مؤقتاً حين تضيق الأوطان؟ وكيف يمكن للإنسان أن يظل إنساناً وهو يحمل في داخله كل هذا التناقض بين القمح والحنين، بين الامتلاء والنقص، بين الحضور والغياب؟

هنا لا تنتهي القصائد عند نقطة واضحة، بل تظل مفتوحةً على احتمالٍ آخر، على قارئٍ آخر، على زمنٍ آخر قد يقرأها بشكلٍ مختلفٍ تماماً عما كتبت لأجله. وهذا بالضبط ما يجعلها حية: أنها لا تغلق نفسها، بل تظل قابلة للتأويل، كأنها كتبت لتعاد كتابتها في كل مرة تقرأ فيها.

في النهاية، ليس هذا الديوان سوى محاولة متواضعة للإمسك بما لا يمسك: بتلك اللحظة التي يمر فيها الضوء على سنبلٍ من قمح، فيبدو العالم بأكمله أكثر قابليةً للفهم، وأكثر هشاشةً في الوقت نفسه. وبتلك اللحظة التي يمر فيها الحنين، فيترك وراءه أثراً لا يمحي، لكنه أيضاً لا يرى.

«أوراق من قمح وحنين»...

هي صفحاتٌ تحاول أن تتذكر الإنسان حين كان قريباً من نفسه، قبل أن تفرقه الطرق، وتبعثره المدن، ويعلمه الزمن أن بعض الأشياء الجميلة لا تستعاد، لكنها تكتب.

د. عدنان بوزان

على ضفتي الحنين

تعال...

لا تتركِ البابَ نصفَ مفتوحٍ بينَ قلبين ..
فالريحُ ..

حينَ تدخلُ من شقِّ الغياب
تبعثرُ أعماراً كاملة.

تمهلُ قليلاً...

فهذا المساءُ متعبٌ كأمٍّ
أرهقها الانتظار ..
وهذه النوافذُ
لم تعد تحتملُ المزيدُ من الوداع.

اقترِبْ...

لأُخبِّي وجهي
في الجهة التي لا يصلها العالم
في المسافة الدافئة بين كتفك والصمت
حيثُ لا حرب ..
ولا منفي ..
ولا ذاكرةٌ تتدلى
كحبلِ نجاةٍ فوق قلبٍ غريق.

دعُ كَفِّكَ

تتعلمان تضاريسي ببطء
كأنهما تقرأن أرضاً نجث من الحريق
فأنا .. منذ زمنٍ بعيد
أعيشُ كمدينةٍ
أطفأتُ آخرَ قناديلها
وخافتُ أن تعترفَ للعتمة بانكسارها.

تعال...

فهذا الليلُ طويلٌ بما يكفي

ليعيدَ ترتيبَ خساراتنا واحدةً ..

واحدة ..

ويفتحَ في الروحِ نوافذَ قديمة

يدخلُ منها الذين رحلوا

ولا يعودون.

لا ترحلُ الآن...

فما زالتْ في صوتكْ

رائحةُ القمحِ حين يبتلُ بالمطر

وما زالتْ يدَاكَ

تشبهان طريقين يفضيان

إلى نِجاةٍ مؤقتة.

دعني أندفقُ نحوكَ كنهرٍ

لا يعرفُ أين ينتهي

نهرٌ تعبَ من حملِ الصخور

ومن مرافقةِ المدنِ الحزينة

ويريدُ أخيراً

أن ينامَ قليلاً

عند ضفتيك.

كلُّ هذا الحنينِ في داخلي

ولا وطنَ له سواكَ

كلُّ هذه الفصولِ اليابسة

وتجيءُ وحدكْ

كأنك المطرُ الأخير.

حين تلمسني ..

أسمعُ قلبي بوضوحٍ للمرة الأولى

كأنّ جسدي كان منفي
وكأنك المعنى
الذي ضاع مني
في زحام السنوات.
أتعرف ما الذي يفعله الغياب؟
إنه لا يسرق الأشخاص فقط
بل يسرق ملامح الأشياء من حولهم؛
فيصير الكرسي أرملة ..
والنافذة يتيمّة ..
ويغدو المساء
أطول من قدرة الروح على الاحتمال.

ابق ...
ابق قليلاً ..
بقدر ما تحتاج سنبلة
كي ترفع رأسها بعد العاصفة
وبقدر ما تحتاج أغنية قديمة
كي تستعيد صوتها من الرماد.

تعال ...
فالليل لا يهزم بالوحدة
والقلب لا ينجو وحده
وأنا تعبت
من جمع روجي كلّ مساء
كأنّ تجمع
القمح المتناثر بعد الريح.

اقترّب أكثر ...
إلى الحدّ الذي تختلط فيه أنفاسنا
كنهرين التقيا

بعد عمرٍ من التيه ..
إلى الحدّ الذي يصبحُ فيه الحنينُ
اسماً آخرَ للحب.

لا تقلُ شيئاً...
فبعضُ الكلامِ
يفسُدُ هشاشةَ اللحظة
وبعضُ الصمتِ
أعمقُ من القصائدِ كلها.

دعِ المساءَ يمرُّ ببطء
ودعْ قلبي
يستريحُ أخيراً
بين يديك.

كأننا عشرون مستحيلاً

أبقى معي ..
على جناح الليل...
فالريحُ تعبُرُ المدنَ المهزومة ..
كأنها آخرُ الناجين
لا تحملُ سوى رائحةِ الرماد
والشوارعُ
تخلعُ أسماءها القديمة
كما يخلعُ المنفيُّ
آخرَ صورةٍ لوطنه.

أبقى معي... ولو على كسرةِ خبزٍ وخوف
على حشراتِ الليلِ الجائع ..
وصراخِ الأيتام ..
وأنينِ الأمهات ..
في ساحةٍ مطاردةٍ
تركضُ فيها الأرواحُ
حافيةً
تحتَ صفاراتِ الخوف.

ومنذُ عرفتكَ ..
صرتُ أقلَّ قدرةً
على احتمالِ هذا العالم
كأنني أُسْقِطُ عني وجعَ الأيام
وأمشي أكثرَ عُرياً
في مواجهةِ الريحِ والخذلان.

كنتُ قبلكَ
أشبهُ شجرةَ لوزٍ برية

تنبُّتْ على حوافِّ الاحتمال
تشدُّ جذورها إلى الصخر كي لا تسقط
وتقفُ وحيدةً

في وجهِ الفصول
تفاوضُ العاصفةَ على بقائها
وتخفي جوعها
تحت أزهارٍ بيضاء
كأنها تُخاتلُ الموتَ بالجمال.

لكنَّ قلباً واحداً ..
حين يجدُ قلبه الآخر
يصيرُ هشاً
كأغنيةٍ في فم جريح.

أبقى معي...
فالمدنُ التي لا يمرُّ صوتك فيها
تتحولُ إلى ثكنات ..
والنوافذُ
تفقدُ قدرتها على الحلم.

أتعرفُ كيف يبدو الغياب؟
كرايةٍ سوداء
معلقةٍ فوقَ قلعةٍ مهجورة
كحصانٍ عادٍ وحيداً من الحرب
كأغنيةٍ ثورية
انكسرَ صوتها
قبلَ أن تصلَ إلى الناس.

وأنا ..
لا أريدُ لهذا القلب
أن يعودَ مهزوماً

من معركته الأخيرة.

خذني إليك
كما تأخذُ الأنهارُ
تعبَ الجبال ..
وكما يأخذُ الليلُ
أسرارَ العشاقِ والثائرين.

خذني ..
بعيداً عن هذا الزمن
الذي يعلقُ أحلامنا
على حبالِ الانتظار
ويزرعُ في صدورنا
بنادقَ من صمت.

أحببتُك ..
كما تحبُّ البلادُ
فجراً يتأخرُ كثيراً ..
وكما يُحبُّ السجناءُ
ثقباً صغيراً في الجدار
تدخلُ منه الشمس.

كنتَ ..
أولَ نافذةٍ
لا تطلُّ على الخوف.

وفي عينيكِ
كنتُ أرى
الطرقاتِ التي لم تُدسّسها الجيوش
والحقولَ
التي ما زالتُ تحفظُ

أغاني الحَصّادين.

حينَ المسُّ يدكْ
أشعرُ أنّ العالمَ
يمكنُ أن يعادَ اختراعه
دونَ حروب ..
دونَ حدود ..
دونَ هذا الحزنِ
الذي ينامُ فينا
كذئبٍ عجوز.

أبقىَ معي...
فالليلُ طويل
والنجومُ
تسقطُ واحدةً ..
واحدة ..
كشهداء مجهولين.

أبقىَ معي ..
كي لا أصبحَ
مدينةً مهجورةً
تسكنها الريح.

كي لا يتحولَ صوتي
إلى منشورٍ سري
تطاردهُ العيون.

أنتَ تعرفُ
أنني لا أجيدُ الهزيمة.

كلُّ ما فيَّ
خُلِقَ للمقاومة:

خطوتي ..
ضحكتي ..
وهذا القلب ..
الذي كلما أُصيبَ
أزهرَ أكثر.

أحببتُك ..
بشراسةِ الذين
نجوا من الموتِ مرات
وبحنينِ الذين
يحملونَ أوطانهم
في حقائبِ صغيرة.

لا تتركني ..
في منتصفِ هذا الليل
فالليلُ حين يطولُ
يُعلِّمُ الروحَ
كيف تتأكلُ ببطء.

أبقى معي...
مثلَ أغنيةٍ
توقظُ الساحات ..
مثلَ رايةٍ
ترفضُ السقوط
مثلَ قمرٍ
يعلقُ ضوءه
فوقَ المتاريس.

أبقى معي ..
إلى أن يتعبَ الخراب
إلى أن تنامَ البنادق

إلى أن تتعلم المدنُ
كيف تزهرُ من جديد.

وإذا جاءَ الفجرُ أخيراً
سنمشي معاً
فوقَ هذا الركامِ
كناجيينِ
حملاً قلباً واحداً ..
وعبراً به
كلَّ هذا الليل.

لا شيء يوجعني سوى غيابك

لا شيء يوجعني سوى غيابك...
كأنه وطنٌ ينتزعُ من صدري ببطءٍ شديد
وكأنَّ الهواءَ يتعلمُ أن يخطئَ رثي
كلما مرَّ اسمُكَ في الداخل.

أمشي...
كأنني ظلٌّ يبحثُ عن جسدٍ فقدتهُ في الحرب
وفي صدري مدينةٌ بلا خرائط ..
عاريةٌ بلا عنوان ..
تتعلمُ الخرابَ كهويةٍ بديلة.

منذُ غيابك ..
صارتِ الأشياءُ أقلَّ يقيناً ..
القهوةُ أكثرُ مرارةً من المعتاد
والطرقاتُ تمشي بلا جهة
كأنها جنودٌ عائدونَ بلا معركة.

حتى الضوءُ
لم يعدْ بريئاً
يمرُّ عليّ كغريبٍ
يعرفُ اسمي ولا يعترفُ بي.

كنتَ حينَ كنتَ
تشبهُ المعنى حينَ ينجو من التفسير
تشبهُ مدينةً
تناهَى على كتفها أغنية
وتشبهُ الفجرَ
حين يخطئُ الطريقَ إلى الحصار.

و أنا ...
امرأة تقفُ في منتصفِ نفسها
تصغي إلى صوتك
كمن ينصتُ إلى وطنٍ يمحي ببطءٍ من الخرائط
وتتعلمُ أن تكونَ ناقصةً
كي لا تنهارَ تماماً.

لا شيء يوجعني سوى غيابك...
حتى الذاكرةُ
لم تعدْ ذاكرةً
بل متاهةٌ تعيدك إليّ
ثم تسحبك ..
كمن يسحبُ نجمةً من سماءٍ مكسورة.

أحببتُك ..
كما تحبُّ الأرضُ المطرَ
لا لأنه جميل
بل لأنه يذكرها
بأنها لم تمتْ بعد.

لكنَّ الغيابَ
ليس غيابَ أشخاص...
إنَّه غيابُ العالمِ عن معناه.

فالعالمُ بدونك
أكثرُ صمتاً مما يحتملُ القلبُ
وأكثرُ امتلاءً بالفراغِ
مما تسمحُ به النجاة.

أمشي في المدينِ
كمن يفتشُ عن ظلهِ في العابرين

عن جملةٍ لم تكتمل
عن يدٍ كانتُ تعيدُ ترتيبَ الفوضى
بلمسةٍ واحدة.

لا شيء يوجعني سوى غيابك...
كأنه خيانهُ الضوءِ
لأولِ نافذة ..
وكأنه سقوطُ المعنى
من وجهِ الأشياءِ دفعةً واحدة.

حتى الليلُ
لم يعدْ ساتراً ..
بل صارَ شقاً في الروح
يمرُّ منه صوتك ولا يعود.

أريدُك...
لا كحضورٍ يستعاد
بل كاحتمالٍ خفيف
ألا يكونَ هذا الخرابُ نهائياً
ألا يكونَ الغيابُ
هو الشكلَ الوحيدَ للحقيقة.

فابقِ في داخلي...
إن كان الخارجُ قد ابتلعك
لأنني كلما حاولتُ نسيانك
أكتشفُ أنني لا أنجو
بل أتذكرُ فقط
أنني
لا شيء يوجعني...
سوى غيابك.

تراتيلُ القمحِ الأخير

أنا ابنُهُ هذا القمحِ...
ذلك الذي تعلّم الوقوفَ طويلاً
في وجهِ الريحِ ..
ولم يتعلّم يوماً
كيفَ ينحني.

أنا ابنُهُ السنابلِ ..
التي كانتْ تُخبئُ الشمسَ في عروقِها
وتوزعُ الضوءَ
على الفقراءِ كأنَّهُ ترنيمةٌ سماوية.

في طفولتي...
كانَ للحقولِ صوتٌ يشبهُ الأمهاتِ
وكانتِ الأرضُ
تسرحُ شعرها بالندى
وتنامُ على كتفِ الفجرِ
كعروسٍ خارجةٍ من صلاةٍ قديمة.
لكنَّ البلادَ تغيرت...

صارَ الجنودُ أكثرَ من العصافيرِ
وصارتِ السماءُ
تمتلئُ بالدخانِ
أكثرَ مما تمتلئُ بالغيمِ
حتى النهرُ...
ذلك الذي كانَ يحفظُ أسماءَ القرى
ويعرفُ خطى الرعاةِ
أضاعَ طريقَهُ

من شدّة الخراب.

وأنا...

أقف الآن

في آخر الحقل

كأنني الناجية الوحيدة

من مجاعة المعنى.

أحمل سنبله يتيمه

وأمشي ..

كأنني أحمّل قلب البلاد

لا قمحها فقط.

يا أيها القمح الأخير...

يا نشيد الأرض حين تجرح

لا تمتّ قبل أن تكمل أغنيتك

فهذه البلاد

لم يعد لديها

سوى صوتك

كي تقاوم الصمت

علمتني أمي

أن السنابل التي تنحني كثيراً

تفقد شيئاً من كرامتها

وأن الحقول

تعرف أبناءها

من طريقة مشيهم فوق التراب.

كنت أمشي دائماً ..

كأنّ في صدري ساحة حرب

وكان قلبي

رايةً ممزقة
لكنّها لا تسقط.

أنا امرأةٌ
كلما ضاقتُ بها المدنُ
فتحتُ نافذةً في القمح
وكلما خانها العالمُ
اختبأتُ في رائحةِ الخبز.

فالخبزُ...
ليسَ طعاماً فقط
إنه ذاكِرَةُ الأرض
واليدُ التي تعجنهُ
تشبهُ يدَ الوطنِ
حينَ تربتُ على كتفِ المنفيين.

يا أيها القمحُ الأخير...

كم مرثٌ فوقك
جيوشٌ ..
وأعلامٌ..
وحدود ..

وكم حاولوا
أن يقنعوا الترابَ
أن ينسى أبناءه
لكنك كنتِ تنبتُ دائماً
كحقيقةٍ لا تموت.

حتى حينَ احترقتِ الحقول
كنتِ تخرجُ من الرمادِ
مثلَ نبوءة ..

كَأَنَّ النَّارَ نَفْسَهَا
تَعْجِزُ عَنْ قَتْلِ مَا تَحِبُّهُ الْأَرْضُ.

وَأَنَا...
كَلِمَا رَأَيْتُ سَنِبَلَةً وَحِيدَةً
أَشْعُرُ أَنَّ الْبِلَادَ
مَا تَزَالُ تَتَنَفَّسُ بِصُعُوبَةٍ
لَكِنِّهَا..
لَمْ تَمُتْ بَعْدَ.

فِي اللَّيْلِ...
أَسْمَعُ الْقَمْحَ يَصْلِي
أَقْسَمُ أَنِّي أَسْمَعُهُ:
صَوْتُ السَّنَابِلِ
وَهِيَ تَحْتَكُّ بِبَعْضِهَا
يَشْبَهُ تَرَاتِيلَ شَعْبٍ قَدِيمٍ
يَبْحَثُ عَنْ خِلَاصِهِ.

وَالرِّيحُ...
تِلْكَ الَّتِي كَانَتْ عِدْوَتُهُ دَائِمًا
صَارَتْ الْآنَ
تَعْرِفُ لَهُ
مَوْسِيقَى الْبَقَاءِ.

يَا أَيُّهَا الْقَمْحُ الْآخِرُ...

يَا آخِرَ مَا تَبْقَى
مِنْ بَرَاءَةِ الْأَرْضِ
لَا تَخَفْ مِنَ الْمَنَاجِلِ
فَالَّذِي يَنْمُو مِنَ الْحَبِّ
لَا يَهْزَمُ.

انظر إليّ...
أنا أيضاً
نجوتُ بصعوبة
عبرتُ هذا العمرَ
كمن يعبرُ حقلَ الغام
وخسرتُ كثيراً من وجهي
لكني حافظُ
على قلبي
مثلَ سنبلَةٍ.

لهذا...
كلما جاعَ العالمُ
أمنحهُ قصيدةً ..
وكلما ضاقتِ البلادُ
أزرعُ في الكلامِ
قمحاً جديداً.

أنا امرأةٌ ..
تكتبُ لأن الكتابةَ
آخرُ أشكالِ النجاةِ
ولأن القصائدَ أحياناً
تطعمُ الأرواحَ
أكثرَ مما يفعلُ الخبز.

فإذا مررتُم يوماً
بحقلٍ وحيدٍ
يقفُ في وجهِ العاصفةِ
ويلوحُ للسماءِ
كسجينٍ يرفعُ يدهُ للحرية...

فاعرفوا
أنني ما زلتُ هناك ..
أرتلُ للقمح الأخير
وأحرسُ ما تبقى
من قلبِ هذا العالم.

امرأة يعبرها الشتاء

يؤرّقني الشتاء .. لأنني
كلما فتحت نافذة المساء
رأيت غيابك عارياً تحت المطر
وكان قلبي معطفاً مثقوباً
لا يردُّ عن جسدي بردَ الذكرى
ولا يخبئ ارتجافَ العمر.

أمرُّ على الزجاج
فيلحقني ضبابك ..
كأن يدك القديمة ما تزال
تفتش عن اسمي
في الجهات المبللة
وأكادُ أكتبك ...
لكنني أخشى
أن يعودَ الحبرُ إليَّ
على هيئة امرأةٍ قاتلة.

يا غائباً تركَ المعاطفَ للريح
والشوارعَ لخطانا
والليلَ لي وحدي
ماذا أفعلُ بالطرقاتِ
التي حفظتُ خطاك
ولم تحفظْ لي
سوى وجهي؟

أوقدتُ ناراً صغيرةً في صدري
وألقيتُ فيها رسائلنا؛
فكلما احترقت رسالةٌ

أضاء حريقها وجهي ..
وكلما صار حُبُّنا رماداً
كبر في عيني
مطرُ آخر.

حتى مفكرتي
لم تعد تعرف
أيها قصيدة ..
وأيها جرح؛
فبعضُ الكلامِ كتبتُهُ بالفرح
وبعضهُ سألَ من أصابعي
كدمعةٍ تخشى أن تُرى
وبعضهُ كان طفلةً
ترقصُ في مدينةِ الألعاب
ثم عادتُ من المراجيح
بلا مدينة...
ولا يدُ تمسكُ بها.

علمتني ألا أنتظر القطاراتِ طويلاً
فالمحطاتُ مقابرٌ صغيرةٌ للمواعيد
وأن أتركُ للرحيل
باباً لا يراه أحد؛
فربما كان قطاري
يأتي من جهةٍ أخرى
من جهةٍ
لا يعرفها الغياب.

وأنا الآن أسافر...
لا أعرفُ أين ينتهي بي الطريق
لكنني أعرفُ أن قلبي

لم يعد يريدُ عودتكُ؛
يريدُ فقط
أن يجدَ نافذةً
لا يكتبُ عليها المطرُ اسمكُ.

فإن جاءَ الشتاءُ من بعدي
وقرأَ على زجاجِ المدينِ
امرأةً تشبهني
فلا تقل: تلكَ التي انتظرتني...
قل: تلكَ التي نجثُ
حينَ ظنَّ الحبُّ
أنها لن تنجو.

سأمضي ..
وفي حقيبتِي حلمٌ أبيضُ
لم تلمسهُ يداكُ
وسأتركُ للريحِ
صورنا المحترقةَ
كي تحملها بعيداً.

فربما في آخرِ الطريقِ
تولدُ لي مدينةٌ
لا يعرفُ أهلُها اسمكُ
ويكونُ لي قلبٌ جديدٌ
أعلقُ عليه معطفي
وأدخلُ الشتاءَ وحدي...
دون أن أشعرَ بالبرد.

لا تعبروا من هنا

أيها العابرون في وجه النار
لا تكثروا من رفع السيوف؛
فما انحنَتْ شجرةٌ للريح
إلا لتعودَ أكثرَ ارتفاعاً.

خذوا أسماءكم من على أبوابنا
خذوا خرائطكم المطويةً في جيوبكم
خذوا ظلالكم التي ألقتها الشمسُ علينا
واتركوا لنا التراب؛
فهذا الترابُ يعرفُ أقدامنا
ويحفظُ في عروقه
أسماءَ الذين مضوا
ولم يسلموا مفاتيحَ الغياب.

لا تلمسوا القمح ..
فالقمحُ عندنا ليس خبزاً
إنه ذاكرةٌ خضراء
تشقُّ صدرَ التراب
كلما ظننتم أن الترابَ انتهى.

ولا تقتربوا من النوافذ ..
خلف كل نافذةٍ أمٌّ
تُرِّي الغيابَ على كتفها
وخلف كل ستارةٍ
وجهٌ تعلم أن ينتظر
دون أن ينحني.

نحنُ الذين ..

إذا هدمتم البيت
حملنا عتبتَهُ ومشينا
وإذا اقتلعتُم الشجرة
حفظنا ظلها في صدورنا
وإذا صادرتُم الطريق
شققنا من أقدامنا طريقاً آخر.
فلا تقولوا: خذكم الزمن.

الزمنُ معنا؛
لأننا دفنًا فيه موتانا
وزرعنا فوقهم
ما يكفي من الربيع.
ولا تقولوا: انطفأنا.

نحنُ أبناءُ النار والنور
كلما أكلتنا
تركثُ لنا في الرماد
فمأًجديداً للهتاف.

أيها العابرون في وجه النار
ماذا ستفعلون
حين يرفضُ الحجرُ أن يكون حجراً؟
حين تستيقظُ الأبوابُ من خشبها؟
حين يخرجُ من الجدار
صوتٌ لا تعرفونه
ويقولُ لكم:
هذا المكانُ لنا ..
وهذا التاريخُ لنا ..
وهذا الحزنُ لنا ..

وهذا المساء الذي طالَ انتظاره لنا.
ماذا ستفعلون
حين تصبحُ الذاكرةُ أكثرَ صلابَةً من الحديد
وحين تصيرُ دمعهُ أُمّ
أثقلَ من كلِّ مدافعكم؟

لا نطلبُ منكم رحمةً
ولا ننتظرُ منكم اعترافاً؛
فالحقُّ الذي يحتاجُ إلى إذنٍ
ليس حقاً ..
والأرضُ التي تحتاجُ إلى شاهدٍ
لا تحتاجُ إلينا.

نحنُ شهودها.

نحنُ القمحُ حين يدفن
والنهرُ حين يحاصر
والنافذةُ حين تكسر
والصوتُ حين يمنع
وجريدةُ من نور صباحية
ثم يعودُ من آخر الليل
أعلى.

فامضوا ..
إن استطعتم.

خذوا النارَ معكم؛
فقد تعلمنا منها
أن ما يحترقُ لا يختفي دائماً
وأن بعضَ الحرائقِ
تتركُ في العتمة

بدايةً شمس.

أما نحن ..

فلن نخرج من هذه الأرض
إلا كما يخرجُ الفجرُ من الليل:
لا مستأذناً ..

ولا معتذراً ..

ولا حاملاً في يده
إلا حقه في الظهور.

أيها العابرون في وجه النار
لقد تأخرتم كثيراً؛
فالطريقُ الذي ظننتموه خلفنا
صار أماننا
والبابُ الذي أغلقتموه
صار في أيدينا
والاسمُ الذي حاولتم محوه
صار أكثر وضوحاً
كلما كتبناه
بالتراب ..
بالقمح ..
بالدم ..

وبالحياة.

فامضوا...

نحنُ هنا.

ولن نكونَ بعد اليوم
الكلماتِ التي تعبرون بينها.

نحنُ الكلمةُ التي تقف.

امرأةٌ من أيلول

تحملُ رياحُ أيلول
وشاحي القديم
وتنثره فوق الطرقات
كأنها تعرف
أن امرأةً مثلي
لا يليق بها
إلا الغياب.
أمشي...

وفي جيب معطفي
وردةٌ يابسة
ومفتاحُ بابٍ
نسي البيتُ عنوانه.

كلما مرّت الريح
لامستُ قلبي
كأنني أطرق
نافذةً بعيدة
ولا أحد يفتح.

أنا لا أنتظر أحداً
لكنني كل مساء
أترك مصباحاً صغيراً
على حافة النافذة؛
ربما لأن بعض الغياب
يخاف الظلام.

يا أيلول ..
خذ أوراقى الصفراء
ولا تأخذ عطري؛
فقد تركتُ شيئاً منه
في معطف رجلٍ
كان يحبني
ثم صار طريقاً.

ومنذ ذلك اليوم
كلما هطل المطر
أشعر أن السماء
تغسل اسمه
ولا تستطيع
أن تغسله مَيّ.
أنا امرأة ..
تعلمت أن تخبئ حزنها
بين ضفائرها
وأن تبتسم للريح
كي لا تعرف
أن قلبها
ما زال واقفاً
عند آخر باب.

وحين ينتهي أيلول
سأجمع ما تبقى مني
وأضعه في حقيبة صغيرة
ثم أمضي...

لا إلى مكان آخر ..
بل إلى امرأة أخرى
تسكنني
منذ أول غياب.

امراًة تؤجل قلبها

أنا امرأة

تنامُ وفي قلبها

نافذة لا تغلق.

كلما جاء الليل ..

أخفيتُ وجهَ النهار

تحت وسادتي

وخلعتُ عن كتفي

ثوبَ الكلام

وجلسْتُ وحدي

أمسَّطُ شعري

بأصابعٍ من حنين.

لم أكن أريدُ كثيراً...

كنتُ أريدُ يداً

حين ترتجفُ يدي

وصوتاً يقولُ لي:

لا تخافي

وطريقاً واحداً

لا ينتهي

دائماً عند الوداع.

لكنَّ الذين أحببتُهم

عرفوا الطريقَ إلى قلبي

ولم يعرفوا

كيف يبقون.

لذلك

صرتُ أضغُ قلبي
في آخر الغرفة
كثوبٍ أبيض
أخشى أن ألمسه
كي لا تترك عليه
الأيامُ أصابعها.

أنا امرأةٌ
تعلمت أن أبكي بصمت
لأنَّ الدموع
حين يطولُ مكوثها في العين
تصيرُ أكثرَ حكمةً
من الكلام.

أحياناً
أفتحُ خزانةَ ثيابي
وألمسُ الفساتينَ القديمة
ثم أسألها:

أيُّها ..
كان يليقُ بامرأةٍ
لم تكسر بعد؟

فتظلُّ معلقةً
في صمتها.

حتى المرأة
لم تعد تعرفني.

ترى امرأةً
تشبهني قليلاً

لكنها أكبر من صورتها
وأبعد من عمرها
وفي عينيها
شيء بلا اسم.

ربما هو الرحيل.

ربما هو الحبُّ
حين يصلُ متأخراً
بعد أن يكون القلب
قد أغلقَ آخرَ نوافذه.

وربما هي أنا
حين تركتُ جزءاً مني
في يدِ رجلٍ
لم يعرف
أنه كان يحملُ امرأةً كاملة.

منذ ذلك اليوم
لم أعد أقول:

أحبُّك.

أقول:

ابقِ قليلاً...

فأنا أخافُ الكلمات
التي تفتحُ أبواباً في القلب
ثم تتركها
مشرعةً للريح.

وأخافُ الذين

يدخلون القلب كالعابرين
ثم يتركون وراءهم
غرفةً كاملة
تبحثُ عن أصحابها.
أنا لا أريدُ حباً عظيماً.

أريدُ حباً
لا يوقظُ خوفي.

حباً
إذا وضعتُ رأسي على صدره
لا أسمعُ في داخلي
خطي الرحيل.

حباً
لا يجعلني
أفتشُ كلَّ صباح
عن امرأةٍ أخرى
في عينيه.

فقد تعبْتُ
من الوقوفِ أمام الغياب
ومن عدِّ خطواته
كلما ابتعد.

وتعبْتُ
من أن أكونَ جميلةً
كي لا يتركني أحد
ومن أن أتقنَ الصمت
كي لا أثقلَ على قلبٍ

لم يتعلّم حملَ قلبي.

وتعبتُ أكثر
من تلك المرأة
التي كنتُها ..
حين كنتُ أظنُّ
أن الحبَّ مكافأةٌ
على الصبر.

الآن...

أريدُ أن أحبَّ نفسي
دون أن أعتذر.

أن أمشي
بثوبي الذي أحب
بشعري الذي أتركه للريح
وبقلبي
الذي لم يعد
يستأذنُ أحداً
كي يخفق.

أريدُ أن أكونَ امرأةً
لا تنتظرُ عند الباب.

امرأةً
إذا جاء الحبُّ
فتحتُ له.

وإذا رحل ..
أغلقْتُ البابَ بهدوءٍ
وأشعلتُ شمعةً

في المكان الذي تركه
لا كي أراه
بل كي لا أخاف العتمة.

ثم أقول:

كنتُ أحبُّك...

لكنني
لم أعد أضيق نفسي
كي أحتفظ بك.

وفي آخر الليل
حين تهدأ المدينة
أستلقي قرب النافذة
وأضع يدي على قلبي.
لا لأمنعه من الحزن...

بل لأطمئن
أن قلباً بهذا التعب
ما زال ينبض.

ثم أهمسُ له:

يا قلبي...

نم قليلاً.

دع العالم يمرُّ
من دون أن تلحقه.

غداً ..

حين يطلعُ الضوء
سنرتدي وجوهنا من جديد.

غداً
لن نكونَ امرأةً أخرى...

سنكونُ أخيراً
المرأةَ التي كُتِّبَ لها
قبل أن يأخذَ الحبُّ
منا كلَّ هذا الطريق.

حين ينام المطر في عيني

أُمِّي ..

يا حروفَ حنيني وبكائي
يا قصيدتي المنفية في دمي
يا صلاةَ انتظاري
يا آخرَ نافذةٍ
ما زالَ قلبي يفتحها
حين يغلقُ العالمُ أبوابه...

أُمِّي ..

يا اسمي حين أخاف
ويا يدي حين تضيقُ يداي
يا حضناً تركتهُ خلفي
فصارَ الوطنَ كله...

لا تسألي لماذا أعودُ كلَّ مساءٍ
بوجهٍ لا أعرفه
وبقلبٍ كأنَّ أحداً
تركه طويلاً تحت المطر.

أنا لا أبكي ..

ولكنَّ عينيَّ تحفظانِ
كلَّ الذين رحلوا
وحين يشتدُّ الليل
تفتحانِ دفاترهما
وينهضُ منهما الغياب.

أُمِّي...

كان المطرُ يعدُّ أناملهُ

في تلك الليلة ..
ويُودَّعُ ما تبقى من أمني
قطرةً قطرة...

حتى حُيِّلَ إليَّ
أنَّ السماءَ تغسلُ يديها
من دمائنا
وأنَّ الليلَ
كان يطوي عباءتهُ
فوقَ آخرِ صرخةٍ لنا.

مشيتُ حافيةً
فكان الطينُ يعرفُ اسمي
يمسكُ قدميَّ
كأنَّ الأرضَ تريدُ أن تمنعني
من الرحيل.

لكنني رحلتُ...

تركتُ خلفي نافذةً
ما زالت تنتظرُ وجهي
وكرسياً فارغاً
تجلسُ عليه وحدها
رائحةُ أبي
ووسادةً

نام عليها خوفي
ولم يستيقظ.

يا أُمِّي ..
منذ تلك الليلة
وأنا أحملُ البيتَ في صدري.

كلّما أغمضتُ عينيّ
سمعتُ البابَ يفتح
ثم لا يدخلُ أحد.

أعرفُ أنّ الغائبين لا يعودون ..
لكنني ..

كلّ فجرٍ أرْتبُ شعري
وخيتي ..
وأفتحُ النافذة
وأنتظر...

فربما
يعودُ الغيابُ ذاتَ يومٍ
مُحمّلاً
بوجهٍ أحبّه.

ربما يخطئُ الموتُ الطريقَ
مرّةً واحدةً
ويعيدُ إليّ
من أحببت.

أمي ..
إن رأيتني أضحكُ غداً
فلا تصدّقي ابتسامتي؛
فبعضُ النساءِ
يتعلّمنَ كيف يخبئنَ
قبورهنَّ تحتَ الفساتين.

وإن سمعتني أقولُ:
«أنا بخير»
فضعي يدك على قلبي

فقط...

ستجدينَ طفلةً صغيرةً

ترتجفُ هناك ..

وتناديكِ ..

من آخرِ المنفى.

أُمِّي...

لقد طالَ الليل

وأنا تعبْتُ من النجاة.

حين لا يشي الدمع

أراك بعيداً ..
كأنَّ المسافة امرأةً أخرى
نامت بين قلبي وقلبك
وتركت لي من حضورك
ظلاً لا يمسك.

أقول: لا بأس...
ثم ينكسر في صوتي
شيءٌ بلا اسم ..
كأنَّ قلبي
يعرف الحقيقة
قبل أن تنطق بها شفتاي.

لم أبكِ عليك؛
كنتُ أخشى أن يفيض الماء
ما أخفاه الليل طويلاً ..
فخبأتُ دموعي
في أعماق موضعٍ من عيني
وتركتُ للصمت
مهمةً الكذب.

كنتُ أحبك ..
كما تحبُّ شجرةً وحيدة
طائراً يعرف درب الرحيل؛
تفتح له أغصانها
وتدعُّه للسماء
ولا تسأله
لماذا لا يبقى.

وحين غبت ..
لم يمتُ شيءٌ في داخلي...
وهذا هو الحزن.

أن تبقى حيَّةً
بما يكفي لتشعري بكل شيء:
ببابٍ لا يطرق ..
بليلٍ يطول
ولا يجد فجره
بفراشٍ ما زال يحتفظ
بجهةٍ من جسدك
وباسمي حين أناديه
فلا يلتفت.

أنا لا أشتاق إليك؛
فالاشتياقُ كلمةٌ صغيرة
على اتساع هذا الخراب.
أنا أفقد المرأة التي كنتها
حين كان صوتك
يمنح قلبي
سبباً آخر للنبض.

ومنذ رحيلك ..
كلما مرَّ الربيعُ من نافذتي
أغلقتها.

لا لأنني أكره الربيع
بل لأن بعض الزهور
تذكرنا أكثر
بأن الربيعَ

لا يعود إلى المكان نفسه.

أراك في الأشياء
التي لا تشبهك:
في فنجانٍ بارد ..
في كرسيٍّ فارغ ..
في معطفٍ معلق ..
ينتظر جسداً لن يأتي
وفي امرأةٍ تمشي وحدها
وتبدو للغرباء
كأنها بخير.

أما أنا ..
فأعرف أنني ..
منذ رحلت ..
أحمل في صدري
مدينةً أطفأت آخر مصابيحها
ومع ذلك ..
في كل ليلة ..
أترك نافذةً صغيرةً مضاءة...

ليس انتظارك لعودتك
بل كي لا يظنَّ قلبي
أنني فقدتُ الطريق.

وطنٌ بحجمِ الروح

لو سألوني:

إلى أين تمضين ..
حين تضيق بكِ الجهات
ويغدو العالمُ
غرفةً بلا نافذة؟

لقلتُ:

إلى جهةٍ ..
لم تهتدي إليها الخرائط
إلى سماءٍ بعيدة
أخبي فيها اسمي
كآخر نجمةٍ
خشيت أن يطفئها الصباح.

أمضي...
ولا أحمل معي إلا قلبي؛
فهو الشيء الوحيد
الذي عجز المنفى
عن انتزاعه من يدي.

أريد مكاناً ..
لا تسألني فيه الطرقات:
من أين جئت؟
ولا تسألني النوافذ:
إلى أين تمضين؟

مكاناً ..

تكون فيه المسافة
نبضةً بين قلبين
ويكون الوصول
أن أجدني
بعد كل هذا الضياع.

أريد سماءً
لا تنحني فوق رأسي
بل تفتح لي زرقتها
كلما ضاق بي التراب.

وأرضاً ..
حين أضع قدمي عليها
لا أشعر أنني عابرة
بل أشعر أن جذوري
كانت تنتظرني في عتمة التراب.

هناك ..
حيث لا تكون الأرض
قفصاً للروح ..
ولا تكون السماء
سقفًا للطيران
أفتح جناحيَّ
لا لأهرب من العالم
بل لأتسع له.

أريد فضاءً
تتصالح فيه النار والماء
وتستريح الريح
على كتف شجرة
ويصعد من التراب

ضوءٌ لا يعرف اسمه.

فضاءً ..

إذا بكت فيه الغيمة

أزهرت نافذة

وإذا احترق فيه الليل

خرجت من رماده

نجمةٌ لم تولد من قبل.

وفي آخر الليل ..

حين تهدأ الأشياء

ولا يبقى في العالم

إلا قلبٌ يصغي إلى قلب

أريد أن أسمع صوتي

من دون خوف؛

صوت امرأةٍ

عبرت الحريق

ولم تحمل من النار

إلا دفأها.

أنا لا أبحث عن وطنٍ

يتسع لجسدي؛

فالجسدُ حقيبةٌ

تتعب من السفر.

أبحث عن وطنٍ

بحجم روعي؛

وطنٍ لا تحده الأسلاك ..

ولا تغلق أبوابه الخرائط

ولا يحتاج قلبي فيه

إلى جوازٍ ..

كي يكون حراً.

وأريد حباً ..

لا يضع يده على جناحي

ليقول: ابق

ولا يفتح لي الطريق

ليقول: ارحلي؛

بل يحبني

كما تحب السماء طائراً

يعرف أن الحرية

ليست في أن يبقى قريباً

بل في أن يظل قادراً

على العودة.

وحين أصل ..

لن أطرق باباً

ولن أقول:

هذا بيتي.

سأضع يدي على قلبي

وأصغي...

فإذا لم يرتجف من الغربة

وإذا لم يبحث في وجوه العابرين

عن وجهه فقدته

وإذا نامت في داخلي

تلك الطفلة

التي ظلت تركض

خلف وطنٍ لا تصل إليه

سأعرف أنني وصلت.

وعندها فقط
سأقول:

لم أَعثر على وطنٍ
يتسع لي...

لقد وجدتُ وطناً
كان يسكنني
منذ البداية.

بين أغصان الذاكرة

بين أغصان الذاكرة
أمشي وحيداً ..
كأنني آخر امرأة
نجت من حريق الحكاية
وخرجت منه
بظلها فقط.

أمدُّ يدي إلى غصنٍ قديم
فتسقط من بين أصابعي
سنواتٌ كاملة؛
وجهٌ كان يضحك لي ..
نافذةٌ كانت تحفظ خطوتي
وصوتٌ ما زال
كلما أغمضتُ عينيَّ
يفتح في قلبي باباً على ما لا يعود.
لم أنسَ...

لكنني تعلمتُ
أن أضع النسيان فوق الأشياء
كما يلقي الرماد
على جمرةٍ
تخشى أن تموت
وتخشى أن تعود ناراً.

في كل ورقةٍ ..
امرأةٌ تركتها خلفي؛
واحدةٌ تركض نحو الضوء

وأخرى تعود من آخر الليل
بثوبٍ مبلىٍ بالمطر
وثالثةٌ تجلس عند حافة الغياب
تضمُّ اسمها إلى صدرها
وتنتظر اسماً آخر
ضلَّ الطريق إليها.

كانت الأشجار تعرفني
حين كنتُ أعلق أحلامي
على أغصانها ..
وأقول للريح:

خذيها إلى البعيد ..
فلعلَّ قلباً هناك
ما زال يعرف
كيف يعيد الحلم إلى صاحبه.

لكن الريح ..
كانت أصدق مني؛
حملت أحلامي بعيداً
ولم تعد بها.

ومنذ ذلك المساء
وأنا أفتش في الهواء
عن شيءٍ يشبهك؛
عن عطرٍ مرَّ ذات مساء
دون أن يلتفت
فترك الربيع معلقاً في معطفي.
يا زمن...

كم وجهاً محوَّت

من مرآتي؟
وكم باباً أغلقت
قبل أن تبلغ خطوتي عتبته؟

كنتُ أظن أن العمر
يمضي بنا إلى الأمام ..
حتى اكتشفتُ أن بعض الأعمار
تعود بنا إلى الوراء
إلى طفلةٍ صغيرةٍ
ما زالت واقفةً عند الباب
تشدُّ على قلبها
وتنتظر وعداً قديماً
بأن العالم لن يكون قاسياً.
كبرتُ...

لكنها لم تكبر.

ما زالت تسكنني ..
تخبئ وردةً يابسةً
بين صفحات كتاب
وتؤمن .. في سرّها ..
أن الحب إذا تأخر لا يموت؛
إنه فقط يتعلم لغة الصمت.

وفي الليل ..
حين ينام الطريق
تحت جناح القمر
أصغي إلى الأغصان
وهي تقلب دفاتر الغائبين؛
تحدثني عن خطيئتي

كانت هنا ..
ثم محاها المطر
عن أحضانٍ
لم يكتمل دفؤها
وعن قبلةٍ ظلت معلقةً
على فم المسافة.

أقترب من شجرةٍ عجوز
وأضع رأسي على جذعها
فأسمع في خشبها
قلباً قديماً
يخفق في العتمة.
أسألها:

هل يعود الذين مضوا؟

فتسقط ورقةٌ
على كتفي.

ولا أدري ..
أكانت تلك إجابةً
أم أن الشجرة كانت تبكي معي.

أنا لا أريد الماضي كما كان؛
فالماضي حين يعود
يحمل في يديه
كل ما كسرناه
وكل ما كسرنا.

أريده فقط
أن يترك لي نافذةً

صغيرةً في جدار الزمن ..
أطلُّ منها
على المرأة التي كنتها
قبل أن يعلمني الغياب
كيف أبتمسم
والحزن
يسكن عينيّ.

وحين يأتي الخريف
وتهبُّ الرياح
على أغصان الذاكرة
لا أمدُّ يدي إلى الأوراق الساقطة؛
أتركها تمضي
كما تمضي الأشياء
حين يعجز القلب
عن إعادتها.
أتركها تمرّ.

فبعض الأشياء لا تعود
وبعض الذين نحبهم
لا يغيبون تماماً؛
يتحولون إلى ظلٍّ خفيف
يمشي إلى جوارنا
نراه حين يشتدّ الضوء
ولا نراه ..
حين يطول الليل.

وحين تسقط آخر ورقة
من شجرة الذاكرة
لن أبكي.

سألتقطها ..
وأضعها فوق قلبي
وأمضي...

فربما لم يكن النسيان
أن نمحو ما كان
بل أن نتعلم
كيف نحمل ما كان
دون أن يحملنا إلى القاع.

وربما ..
في آخر العمر ..
حين تهدأ الريح ..
وتغلق الأشجار دفاترها القديمة
سأفهم أخيراً:

لم تكن الذكرى
بيتاً عدتُ إليه ..
ولا طريقاً ضللتُه...

كانت أنا؛

كلما فقدتُ الطريق
وجدتني
تحت أغصانها.

لا ترحل يا وجه صباحي

لا ترحل...

يا وجه صباحي
حين يكون الليلُ
أطولَ من قدرتي على النجاة
يا نافذتي الأولى
حين كان قلبي
جداراً بلا جهة ..
فدخل منك الضوء...
ودخلت أنت.

لا ترحل...

فأنا امرأةٌ
لم تتعلم فنَّ الوداع؛
كلُّ الذين رحلوا
تركوا في أصابعي
أبواباً موصدة ..
وتركوني كلما لوحْتُ بيدي
أعدُّ أصابعي
لأؤكد أنني ما زلتُ كاملة.

وأنت...

كنتَ الشيء الوحيد
الذي لم أخفُ عليه
من قلبي.

كنتُ أضعُ رأسي

على كتفِ المساء ..
وأرسلُ للغيم سرَّ امرأةٍ
أحبّت حتى صار الحبُّ
جرحاً يحملُ اسمك.

لا ترحل يا حبيبي...

فالليلُ يعرفُ اسمي ..
والوسادةُ تعرفُ
كم مرّةً أخفيتُ دموعي
كي لا يسمَع أحدُ
صوتَ امرأةٍ
تتهشّم في الظلام.

والمرأةُ وحدها تعرفُ الحقيقة؛
كلما ابتسمتُ أمامها
كان وراء ابتسامتي
قبرٌ صغير ..
أدفنُ فيه
ما أعجزُ عن قوله.
أنت لا تعرف...

ماذا يعني
أن تكونَ رجلاً واحداً
في حياةِ امرأةٍ
أرهقها تبديلُ النوافذ
كلما انكسرَ فيها الضوء.
أنت لم تكن حبيباً فقط...

كنتَ جهةَ قلبي ..

وكان يكفيني
أن أعرفَ أنك هناك
كي لا أخافَ
اتساعَ هذا العالم.

فكيف تريدني
أن أتعلم الطريقَ بعدك؟

كيف أقولُ للنافذة:
لا تنتظريه؟

كيف أقنعُ الفجرَ
أن وجهه لم يعد يشبهك؟

وكيف أعلمُ يدي
أن تنامَ وحدها
بعد أن اعتادتُ
أن تبحثَ عن يدك
في عتمةِ الليل؟

لا ترحل...

فأنا حين أحببتُك ..
لم أتركُ لك مكاناً
في قلبي فقط؛
تركْتُ لك مفاتيحَ حزني كلها ..
وتركتُ خلفك
طفلةً من الضوء
تحرصُ الباب
وتنتظرُ عودتك.

حتى صار غيابك

أكبر من الغياب.

صار كرسيّاً فارغاً
على مائدة العمر ..
وصار فنجانُ قهوتك
يبردُ كلَّ صباح
كأن يدريك
نسيته في منتصفِ الطريق
وصارت الساعةُ تدقُّ في الغرفة
كأنها تنادي قلباً
نسي كيف ينبض.
يا وجه صباحي...

لا تجعلِ الفجرَ
يتيمّاً في عينيّ.

أنا لا أخافُ الليل؛
لقد صادقته منذ زمن
لكنني أخافُ صباحاً
يجيءُ ولا تجيءُ معه.

أخافُ أن أفتحَ الستارة
فلا أراكِ ..
في الجهة التي اعتادَ قلبي
أن يعلقَ عليها انتظاره.

أخافُ صباحاً
لا يكون فيه اسمك
أولَ ما يعبرُ دمي.

فلا ترحل...

دعني أحبك ..
بهدوء امرأة
تعرف أن الأشياء الجميلة
أقصر عمراً من خوفنا عليها ..
فتضمُّها
كما لو أنها ..
آخر ما تبقى من العالم.

دعني أضع يدي
على قلبك وأصغي ...
لعلي أسمع فيه الخطوة نفسها
التي تمشي في دمي.

ولعلي أفهم ..
لماذا جئت متأخراً ..
ولماذا أحبتك ..
في اللحظة التي كان ينبغي لي فيها
أن أتعلّم النجاة.

يا فجر ألمي ...
إن كان لا بدّ من الرحيل
فخذ معك
هذا الصباح أيضاً.

خذ الشوارع ..
والنوافذ ..
ورائحة القهوة ..
والمقاعد التي حملت ظلنا ..
خذ الأشجار

التي حفظت سرَّ خطانا
خذ الأغنية
التي ماتت قبل أن تكتمل
خذ حتى اسمي
إن كان اسمي سيعيدك إليّ.

لكن...

اترك لي قلباً لا يعرف أنه أحبّ.
اترك لي ذاكرة عمياء ..
لا تستيقظ
كلما مرَّ عطرُ
يشبهك.

اترك لي ليلة واحدة
أناّم فيها
دون أن تمتدّ يدي
إلى الجهة الخالية
من السرير.

فقد تعبت...

تعبت من أن أحمل حبي
كما يحمل المنفي مفتاح بيت
هدم منذ أعوام ..
وما زال يؤمنُ
أن وراء الباب
غرفة تنتظره.

تعبت من انتظار الباب ..
ومن عدّ الخطوات ..
ومن اختراع الأعذار للغياب

ومن إقناع قلبي

أن الذين نحبهم

قد يعودون.

بعضهم لا يعود.

بعضهم يتحول من إنسانٍ إلى ذكرى

ومن ذكرى إلى وجع ..

ومن وجعٍ إلى عمرٍ كاملٍ نحمله

دون أن يرانا أحد.

ثم نكتشف ..

في آخر الطريق ..

أننا لم نكن ننتظرهم...

كنا ننتظر أنفسنا

التي ضاعت يوم رحلوا.

وأنا...

لا أريدُ أن أكونَ حكايةَ رحيلك.

أريدُ أن أكونَ

المكانَ الذي تعودُ إليه

حين يتعبُ منك الطريق.

أريدُ أن أكونَ

آخرَ بابٍ

تطرقهُ

حين يخذلك العالمُ كله.

أريدُ أن أكونَ

اليَدَ التي لا تسألك:

لماذا تأخرت؟

بل تفتحُ لك الباب

وتبكي

لأنها كانت تعرفُ

أنك ستعود.

فلا ترحل...

ليس لأنني

لا أستطيعُ العيشَ دونك

بل لأنني أعرفُ

أنني سأعيش.

وهذا هو خوفي.

سأعيش...

وأرتدي الصباحَ فوقَ رمادِ قلبي

وأمشي بينَ الناس

بوجهٍ لا يعرفهُ الحريق.

سأضحكُ...

وأخبيُّ خلفَ ضحكتي

حزناً مكسوراً.

تطلُّ منها ..

امراً تشبهني

ولا تشبهني.

لكني سأتركُ في داخلي امرأةً صغيرة

تجلسُ كلَّ مساء

عند النافذة ..

وتسألُ الفجر:

هل عاد؟

وحين لا تجيبُ السماء ..
تضعُ رأسها بين يديها وتبكي
كي لا يسمعها أحد.

لا ترحل يا وجهَ صباحي...

فأنا، منذ قرينٍ من الألم ..
لم أعد أخافُ الظلام...
صرتُ أخافُ
أن يطلعَ الصبحُ
وأنتَ لستَ فيه.
وأخافُ أكثر...

أن يطلعَ صباحُ
وأكونُ قد تعلمتُ
كيف أعيشُ دونك.

لأنني عندها
سأعرفُ أنني نجوت...

لكنني سأعرفُ أيضاً
أن شيئاً مني
ماتَ كي تنجو بقيته.

فابقَ...

ليس كثيراً.

ابقَ بالقدرِ الذي

يكفي كي لا ينهار الفجرُ في عيني
وبالقدر الذي يجعلُ قلبي يصدق
أن الحبَّ
لم يكن خطأ.
ابقَ...

فأنا لا أطلبُ منك
أن تهيني الأبد.

يكفيني ..
ألا تجعلني
أقضي بقيةَ عمري
أبحثُ عن وجهك في كلِّ صباح.

يكفيني ..
أن تتركَ لي منك ذلك الضوء
الذي، حين دخلَ قلبي
جعلني أصدقُ
للمرة الأولى
أن امرأةً مثلي
يمكن أن تنجو
من الليل.

علمني كيف أنساك

لو كنتَ تعرفُ ..

كم يشبهُ حُبُّك ..

سقوطِ امرأةٍ

من آخرِ نجمةٍ

إلى قاعِ قلبها...

لما تركتَ يدي معلقةً بكَ

كأنك آخرُ جهةٍ

بقيتُ لي.

لم أكن أعرفُ

أنَّ بعضَ الرجالِ

لا يدخلون القلبَ

ليسكنوا فيه ..

بل ليغيروا

شكلَ الخراب.

جئتُ...

فأطفأتُ في عينيَّ ليلاً كاملاً ..

ثم تركتني

أخافُ الصباحَ

حين لا تكونُ فيه.

علمني كيف أنساك ..

لا كيف أحببتك؛

فالحبُّ أعرفهُ ..

أما النجاةُ منك

فلا أعرفُ لها طريقاً.

علمني ..
كيف أقتلُ صوتك
من أعماقِ صمتي ..
وكيف أخبئُ اسمك
حين يرتجفُ قلبي
كلما مرَّ المساء..
أنا لا أغرقُ في عينيك...

أنا أغرقُ ..
في المرأة التي صرتها
يوم أحببتك.
فإن كنتَ راحلاً ..
خذ معك
هذا القلبَ
الذي تركتهُ
معلقاً بين يديك
وخذ مفاتيحَ حزني كلها...

فأنا ..
منذ أحببتك ..
لم أعد أعرفُ
أيهما أنا:
المرأة التي نجت ..
أم الغريقُ
الذي ما زال
يناديك
من قاع قلبه.

أنا ابنةُ تاريخٍ منسيٍّ

أنا ابنةُ تاريخٍ منسيٍّ ..
مرّت عليه الجيوشُ
كريحٍ سوداء ..
وتركتُ ظلالها
مساميرَ في قلبِ الليل
ثم مضت...
كأنني لم أكن
وكأنّ الذين غابوا كانوا غيمَةً
ضلّت طريقها إلى السماء.

ولدتُ من خبزِ امرأةٍ فقيرة ..
من كفٍّ كانت تقسمُ الرغبةَ
بين الجوعِ والحنين ..
ومن عينِ طفلٍ
نامَ في حضنِ ليلٍ حزين
ومدّ يدهُ إلى السماء
لا ليقطفَ صرخة
بل ليسألها:
لماذا كلُّ أبوابِ الأرض
أضيقُ من دمعة؟

أنا من أنينِ الأرامِلِ
اللواتي يخبئنَ أسماءَ موتاهنَّ
تحتَ الوسائد ..
ومن الأيتامِ
الذين ورثوا قمصاناً ليليةً مهترئة
أكبرَ من أجسادهم ..

وصورةً مائلةً على جدار ..
وصوتاً بعيداً كلما نادى الليل
لم يجبه أحد.

أنا من ديرسم ..
من جبلٍ
ما زال يحملُ في صخره
خطى الذين لم يعودوا
من جرح ..
أضاعَ قبره
وظلَّ مفتوحاً في خاصرةِ الذاكرة
من نهرٍ ..
غسلَ وجهه بالدم
وعجزَ عن غسلِ أسماءِ الموقى.

أنا من مهاباد ..
من جرحِ نازفٍ
من حرفٍ أشعلتُ تحته النار
فلم يمت؛
من أبجديةٍ
كتبْتُها الآهاتُ على جدارِ الغياب
كلما نثروا رمادها في الريح
عادتْ جذوراً
تصرخُ في التراب ..
وكلما قالوا: انتهتْ ..
كان الحرفُ
يبدأُ من جديد.

أنا من كوباني الجريحة ..
من مدينةٍ نامَ القمرُ فوق ركامها

ومن أمّ
كانت تنبشُ الحجارة
بأصابعٍ من خوف
عن نبضةٍ صغيرة ..
ومن طفلي
حملَ مفتاحَ بيتٍ
لم يبقَ له باب ..
ومن طريقٍ
ظلتُ عليه آثارُ العابرين
أطولَ من العابرين.

أنا من عفرين ..
من زيتونةٍ
تطلُّ من بين الركام
كأنَّ الأرضَ
تتذكرُ نفسها ..
ومن غصنٍ
كلما انحنى للريح
أخفى في ظلّه حكايةَ بيت.

أنا من دهوك ..
من الجبلِ حين يعلّقُ ثلجهُ
على كتفِ الغياب
ومن دربٍ
يمشي فيه المنفيُّ
ولا يدري
أهو ذاهبٌ إلى وطنه
أم يضيع بين الضباب والأنين.
أنا من آمد ..

من حجرٍ عتيق
نامتُ فوقه قرونٌ من الصمت
ومن بابٍ
كلما أغلقَ في وجهِ التاريخ
ظَلَّتْ يدُ الذاكرة تدقُّ عليه.

أنا من كلِّ حرفٍ
أحرقوه ولم ينطفئ ..
ومن كلِّ اسمٍ
دفنوه فصارَ شجرة ..
ومن كلِّ أمٍّ
أخفتُ بكاءها في ثوبها
كي لا يخافَ الأطفالُ من الليل.

أنا من المنفى؛
كلُّ مدينةٍ عبرتها
تركتُ على عتبتها
قطعةً من قلبي ..
وكلُّ حدودٍ اجتزتها
نزعْتُ من اسمي حرفاً
حتى صرْتُ أنادي نفسي
فلا تجيبني
إلا امرأةٌ بعيدة تشبهني
ولا تعرفني.

في حقيقتي ..
مفتاحُ أعمى ..
وترابُ بيتٍ ما زال يحلُمُ بالنور
وشالُ أمٍّ
كلما ضممتُهُ إلى صدري

عادَ الشتاءُ طفلاً
وبكى.
لا أريدُ وطناً
يقفُ على جثةٍ صراخي
ولا رغيفاً
تلمعُ فوقهُ أسنانُ الجائعين
ولا حريةً
تشعلُ قنديلهما
من نارِ امرأةٍ أخرى.

لا أريدُ نجاةً
تحتأجُ إلى غرقِ أحد
ولا حياةً
يدفعُ ثمنُها
من دمِ الأبرياء.

أريدُ أن أعيشَ
بلا دمٍ على يدي
وأن أموتَ — إن جاء الموتُ —
نظيفةً القلب ..
كشمعةٍ أخيرة
ظلتُ تحرسُ العتمةَ
في بيتٍ هجرهُ الجميع.

فإن متُّ يوماً ..
لا تكتبوا على قبري:
كانت ضحية.

قولوا فقط:

كانت امرأةً

حملتُ تاريخاً منسياً
في حضنها ألف عام
وكانت في عينيها
بلادٌ كاملة
لم تجد طريقها إلى ذاكرة التاريخ

ومن كلِّ بقعةٍ من الترابِ
تركَّ جرحاً
في جسدِ التاريخ.

وحين انكسرَ العالمُ
لم تحملِ حجراً
لتكسرَ بهِ أحداً؛
جمعتُ شظاياهُ
وزرعتها في قلبها
كي ينبتَ من وجعها
شيءٌ يشبهُ السلام.

ثم مضتُ...

خفيفةً كدمعة ..
ثقيلةً كتاريخ ..
وفي فمها قصيدةٌ أخيرة
ظلَّ الموتُ عاجزاً
عن إحراقها.

قبل أن أصبح غيباً

أنا امرأة ..

وصل الغيابُ إليَّ
قبل أن أصلَ
إلى نهايتي.

كان في صدري
ربيعٌ صغير ..
لكنَّ يداً باردةً
أغلقت نافذته
قبل أن تتفتح الورد.

تركتُ على حافة السرير
ثوب المساء ..
وعطراً لم يجد
عنقاً يقيمُ عليه
وتركتُ رسالةً
كتبتُ في آخرها:

«حين تعود...
لا تبحثُ عني كثيراً.»

ثم محوتُ الجملة
وبكيت.

كان الموتُ قريباً جداً ..
حتى إنني
سمعتُ وقعَ خطواته
في دقات قلبي.

قلتُ له:

تمهّل...

فما زال في فمي
كلامٌ لم يجدْ صوته
وما زالت يدي
تحفُظُ دفءَ يدٍ أُخرى.

قال لي الصمتُ:

انتهى الطريق.

فخبأتُ وجهي في كتفِ الليل
كطفلةٍ تخشى
أن يراها الفجر.

أنا لا أخافُ الموت...
أخافُ أن أموت
والأشياء التي أحببتها
ما تزالُ تنتظرني
عند بابٍ
لن أعودَ إليه.

أخافُ أن يصيرَ اسمي
أثراً بارداً ..

على حجرٍ بعيد
وأن يمرَّ الذي أحبُّ
بقربي ذاتَ يومٍ
دون أن يعرف
أن امرأةً كانت هنا ..
وأن قلبها
كان أوسعَ من عمرِها.

فإذا مررت بي ..
أيتها الريح ..
لا تنثري ترابي...

اتركيه مكانه.

فلعلَّ امرأةً تأتي بعدي ..
وتضع يدها عليه
فتسمعُ تحت التراب
نبضاً خافتاً
يقول:

لم أمت تماماً...

كان ينقصني فقط
أن يقول لي أحد:

ابقي.

ضحكة في جنازة الفجر

ما زالَ القمرُ يضحكُ ..

من أنينِ الفجرِ ..

وأنا أُخبئُ في ضفائري وطناً؛

كلما أعدموا شمساً في سماءه

أنجبتُ من رمادها ألفَ قمرٍ

يا ليلُ ..

كم مرةً صلبوا الصباخَ على أبوابنا

وكم مرةً نهضتُ من رمادي

لأقولَ للريح:

لن تنحني الشجرةُ

ما دامَ في جذورها غضبُ كاوا

وفي صمتِ الحجارةِ

نارٌ لم تتمدُ ..

وفي دمِ الأرضِ

فجرٌ لم يولدَ بعدُ.

أنا امرأةٌ من طينِ هذه الأرض؛

في قلبي مقبرةٌ بحجمِ البلاد

وفي عيني ثورةٌ

كلما أحمدوا لهيبها بالدموع

أضرمْتُ في الدموعِ حريقاً ..

وفي الحريقِ ذاكرةٌ ..

وفي الذاكرةِ وطناً عصياً على الموت.

أمشي ..

وفي كفي مفاتيحُ البيوتِ المهْدمةِ

أضمُّها إلى صدري

كما تضمُّ أمُّ أسماءُ أبنائها
إلى قلبها ..

حين تعجزُ الأرضُ عن ردهم
وحين لا يبقى من البيتِ
سوى مفتاحٍ
ومن الأبناءِ
سوى وجع النداءِ.

وخلفي ..
ما زالت ضحكةُ أمي معلقةً
على مسمارِ بابٍ مخلوعٍ؛
تفتشُ عن أبنائها
في الجهاتِ التي ابتلعتهم
وفي الجهاتِ التي أنكرتُ أسماءهم
وفي ليلٍ كلما نادته
أعادَ إليها صوتها
أكثرُ يُتَمَّا.

ما زلتُ أزرعُ وردةً في فمِ الموت
وأرفعُ رأسي كلما قالوا:
انتهى الوطنُ.

فالأرضُ تعرفُ أبنائها
ولو أنكرتهم خرائطُ القتلة
ولو محتِ الحدودُ أسماءَ القرى
ولو صار بيتُ طفولتي حجراً
يحدقُ في العابرين
ولا يتذكرُ كيف كان لنا
بابٌ ..

وأغنيةٌ ..
وغدٌ.

يا فجر ..

يا صلاة حنيني ..

لا تأتِ باكياً؛

ففي عيني ما يكفي

لإغراق ليلٍ بأكمله.

فليس يليقُ بكِ الانكسارُ

وأنتِ ابنُ هذا الشعبِ

الذي أشعلَ من جراحهِ قنديلاً

وحملَ نعثَ أحلامهِ بيدٍ

وبالأخرى

فتحَ للغدِ باباً

من بين أنيابِ الخرابِ.

نحنُ الذين إذا ضاقتُ بنا الأرضُ

اتخذنا من صدورنا أرضاً ..

وإذا أغلقتُ في وجوهنا الجهاتُ

شققنا من جراحنا درباً

وإذا قالَ الموتُ: انتهى كلُّ شيءٍ

أصغينا إلى الترابِ؛

فسمعنا الجذور

تعضُّ على وجعها ..

وتتهيأُ لربيعٍ

لم يأذنوا له بالولادة.

ما زالَ القمرُ يضحكُ من أنينِ الفجرِ

وأنا ..

على دروبِ المنفى ..

أقبضُ على جرحي

كأني أقبضُ على يدِ البلادِ

قبل أن تهوي من شرفة الغياب.

لا تسألوني: متى أعود؟

كيف تعودُ امرأةً

إلى بيتٍ يسكنها أكثر مما تسكنه؟

وكيف تعبرُ باباً

صار في الذاكرةٍ أوسعَ من العالم

وأضيقَ من المسافةِ

بين أمٍّ وقبرِ ابنها؟

إذا سألوكَ عني، فقل:

كانت امرأةً

تحملُ في صوتِها أنينَ المنفيين

وفي خطواتها عنادَ الجبال

وفي قلبها بلاداً

كلما مزقوها

التأمتُ على هيئةِ ثورة

وكلما دفنوها

أزهرتُ في أكفانها سنبلهً.

وحين أطبقَ الليلُ

على آخرِ نافذةٍ في روحها

لم تستغثُ بالسماء

ولم تنتظرَ نجمةً تنزلُ لإنقاذها؛

أشعلتُ قلبها

ومضتُ ..

وفي يدها ما تبقى من البلاد

تبحثُ عن فجرٍ

لا يصلبُ على الأبواب

ولا يتركُ الأمهاتِ

يشيخنَ على عتباتِ الانتظار.

وما زالَ القمرُ يضحكُ ..

وما زالَ الفجرُ ينرفُ...

أما هي ..

فقد صارتُ تراباً تحت أقدامِ العائدين

وصار اسمها جذراً

يمتدُّ تحتَ الحدود

وكلما مرَّ الريحُ على قبرها

ارتجفتِ الأرضُ

وانشَقَّ الصمتُ عن نداء:

أنا لم أمت...

أنا البلادُ

حين يظنُّ القتلُ

أنَّ البلادَ تموتُ.

قصيدي لا تنتهي على فم الرحيل

لم أكن أودّع أحداً؛
كنتُ أختبر هيئَةَ العالم
حين تغلق الأبواب في وجه امرأة
لم ترتكب سوى أنها أَحَبَّتْ
أكثر مما يتسع له هذا العالم من حبٍّ
وصدقت أن للقلب حقاً
في أن ينتمي إلى ما يحب ..
وأنَّ للأرض ذاكرةً
لا تمحوها أقدام العابرين.

كان الرحيل واقفاً على فمي
كجنديٍّ عجوز
أضاع ملامحه في الحروب ..
وينتظر أمراً أخيراً بإطلاق النار؛
وكانت في حلقي بلاذٌ
تختنق بأسمائها ..
وأمهاتٌ يعرضن على صرخاتهنَّ
كي لا توقظ المقابر أبناءهنَّ
لكنني ابتلعت الطريق ..
ومضيت ..
كأنَّ في خطوتي الأخيرة
ما يكفي لخلخلة يقين النهاية.

أنا لا أنتهي حين يغيب الذين أحبهم
ولا يصير قلبي حقيبةً ..
كلما ضاقت بنا الأرض؛
ففي داخلي امرأةٌ

كلما دفنوا صوتها
شَقَّتْ حنجرُتها ترابَ القبر
وأُنبتت من حطام الصمت أغنيةً
لا تعرف كيف تستأذن الطغاة
ولا كيف تخفض صوتها
كي يطمئنّ الخراب.

وكلما قالوا: انكسرت ..
جمعت شظاياها من الطريق
ورممت بها نافذةً
لأولئك الذين أضاعوا الجهات
وللذين طال وقوفهم
على عتبات بيوت
نسيت وقع أقدامهم
لكنها ما زالت .. في سرّها ..
تفتح أبوابها كلما مرّت الريح.

في حنجرتي ما عجزت المنافي عن دفنه
وفي صمّتي تمرّدٌ
لا يحتاج إلى راية؛
يكفي أن أرفض أن أكون
النسخة الأخيرة من امرأة
أرادوا لها أن تموت مرّتين:
مرّةً حين اقتلعوها من أرضها
ومرّةً حين أفنّعوها
أنّ الاقتلاع قدّر ..
وأنّ على الجذور أن تعتذر
لأنّها تشبّثت بالتراب.

يا أيها العالم ..

ماذا تركت لنا
كي نتعلم هذا البقاء؟

نزعنا أسماءنا عن الشوارع ..
ومحوت وجوهنا عن الجدران ..
وأغلقت النوافذ التي كانت تطلّ
على طفولتنا ..
ثم وقفت أمام منافينا تسأل ببرود:
لماذا لا تعرفون الطريق إلى بيوتكم؟

لأن البيوت، يا سيدي ..
لم تعد حجارةً وأبواباً؛
إنّها يد أبي ..
حين كانت تشير إلى الغد
كأنّ الغد وعدٌ لا يخون ..
ورائحة خبز أبي
حين كان الرغيف الصغير
يتسع لجوع عائلة كاملة ..
وطفلةٌ نامت على كتف وطن
وظنّت أنّ العالم
ليس سوى ذراعين تحميانهما؛
ثم استيقظت ..
 فلم تجد سوى المنفى
يسألها عن اسمها ..
ولا أحد يسألها
مَنْ سرق منها طفولتها
ومَنْ أقنع الصباح
أنّ بابه لم يعد يعرفها.
ومع ذلك ..

أخْبِيَّ فِي كُتَي بَذْرَةٍ ..
وأحرسها من رِيح الخراب
كما تحرس أُمُّ آخِر أنفاس طفلها؛
فما زال في صدري اعتراضٌ
لا تعرف المقابر كيف تدفنه ..
وفي دمي شيءٌ عصيّ
يرفض أن يوقع على هزيمته
أو أن يمنح الموت
حقَّ كتابة السطر الأخير.

لن تكون نهايتنا
كما يشتهي القتل ..
ولن يكون التاريخ قبراً
تُحكِم إغلاقه الأيدي
التي سرقت مفاتيح البيوت
ولا مرآةً يعلقون عليها وجوههم
ثم يسمّونها ذاكرة البلاد؛
فليس التاريخ ما يكتبه المنتصرون وحدهم
بل ما تظلل الأرض تهمس به
حين يصمت الشهود
وما تحمله الأمهات في صدورهنّ
حين تعجز الأسماء عن النجاة.

أنا امرأة ..
لكن في دمي حشوداً من النساء؛
في عروقي أُمُّ تنتظر ابنها ..
وأختٌ تخبّي دمعته عن إخوتها ..
وحبيبةٌ تحفظ صوتاً غائباً
كي لا يموت مرّةً أخرى ..
وفلاحةٌ تدفن حبة قمح

في أرض أحرقتها النيران
ثم تعود عند الفجر
لتسأل الرماد:
هل أبقيت لنا متسعاً لسنا بلنا؟

كل واحدة منهم
تحمل أرضاً على كتفها
وتجر وراءها أغنيّة
لم تجد فماً يغنيها؛
لكنها، كلما عبرت الليل ..
تركت في عتمته أثراً
يشبه درياً سرياً إلى الثورة ..
كأنّ خطاها، وإن أثقلها الحزن ..
تعلم الأرض كيف تنهض.

وإذا رأيت الفجر مكسوراً ..
فلن أبكي عليه كبكاء العابرين
على شيء انتهى؛
سأضع يدي على كتفه
وأمسح عن جبينه غبار الليالي
وأقول له: انهض ..
فما زال في هذا العالم
من لم يتعلم الركوع ..
ومن يخبئ تحت لسانه كلمة «لا»
كأنها آخر جمرة
في بيت حاصرته الثلوج ..
وكأنها قلبٌ صغير
يرفض أن يسلم مفاتيحه للشتاء.
وإذا عاد الرحيل ..

ووقف على فمي مرّة أخرى
فلن ألعنه ..
ولن أستعطف الطريق ..
ولن أطلب من الغياب أن يكون رحيماً؛
سأفتح شفّتي ..
ليخرج منهما شعبٌ كامل
بأماهاته وجراحه وأغانيه ..
بأسمائه التي محوها ..
وبأحلامه التي دفنوها
قبل أن تكتمل لها ملامح الحياة؛
سيخرج من صمّتي
كما يخرج النهر من صخره
لا ليسأل الطريق عن إذن
بل ليذكر الأرض
أنّ للمياه ذاكرةً
وأنّ الحواجز لا تصير قدراً.

فأنا لم أكتب قصيدتي
لأعدّ الذين رحلوا
ولا لأقيم للغياب طقساً أخيراً
بل كي لا يتحول موتهم
إلى قانون للحياة ..
ولا يصبح صمت الناجين
دليلاً على أنّ المأساة انتهت؛
كتبتها كي يبقى للغائبين
مكانٌ في ضمير العالم
وللأحياء سببٌ آخر
كي لا يستسلموا للنسيان.

قصيدي لا تنتهي على فم الرحيل؛
إنها تبدأ

حين يظنّ الرحيل أنّه انتصر
وحين يخلع الليل آخر أقنعتة
ويكتشف أنّ المرأة التي تركها
وحيدةً عند حافة العالم
لم تكن تنتظر من ينقذها؛
كانت تنصت إلى الأرض
وهي تعلم جذورها
كيف تشقّ الصخر ..
وتصغي إلى قلبها
وهو يرمّم .. في الظلام ..
ما تهدّم من جهات الحياة.

وحين يظنّ الليل
أنّه أطفأ آخر امرأة في البلاد
سيسمع من تحت الرماد صوتي؛
لا كصرخة ناجية
تستجدي مكاناً في الحياة
بل كنبض أرض
رفضت أن تتعلم الموت
وكأنّ التراب ..
بعد طول صمت
استعاد حنجرتة
وقرّر أن يشهد.

أنا هنا؛

لا لأنني نجوت ..

بل لأنّ الذين أرادوا لي الغياب

نسوا أني أحمل في حنجرتي
ما عجزت المنافي عن دفنه
وأنّ القصيدة التي لم يستطيعوا إسكاتها
ستظلّ تفتح للراجلين أبواباً
وللعائدين طرقاً ..
وللذين لم يولدوا بعد
سماء لا يملك أحدٌ مفاتيحها.

لن تُدفن أحزاني الكاملة

لو كتبتُ ألفَ آهِ ..
وحفرتُ بيدي ألفَ قبر ..
وقرأتُ ألفَ فاتحةٍ على جثةٍ موتي ..
واختبرْتُ في دمي ألفَ رحيل ..
فلن تُدفن أحزاني الكاملة.

ففي داخلي أمُّ
ما تزال تشعل مصباحاً عند الباب
ولا تعرف أنَّ الذين طال انتظارهم
لم يعودوا سوى أسماءٍ منقوشةٍ على الحجر.

وفي داخلي وطنٌ مجروح ..
كلما أغمضتُ عيني رأيتُهُ يساق إلى المقصلة
وكلما فتحتهما
رأيتُ القاتلَ يشرح للناس
كيف يكون العدلُ أبيضَ ..
وكيف يغدو الدُمُّ الأحمرُ ..
حُجَّةً ضدَّ الضحية.

أنا امرأةٌ
لم يُبكها الموتُ كما أبكاها البقاء؛
فالموتُ بابٌ واحد
أما الحياةُ هنا
فممرٌ طويلٌ من الأبوابِ المغلقة.

دفنتُ حبيبي ..
ودفنتُ الطريقَ الذي كان يعيده إليَّ
ووقفتُ على حافةِ عمري

أَفْتَشْ فِي التَّرَابِ عَنْ يَدِ
تَرَبَّتْ عَلَى خَوْفِي وَتَقُولُ:
لَمْ يَنْتِهِ كُلُّ شَيْءٍ.

لَكِنِ التَّرَابُ كَانَ مَنشَغَلًا
بِمَحُو آثَارِ أَقْدَامِ الْجُنُودِ
وَكَانَتِ السَّمَاءُ بَعِيدَةً
كَأَنَّهَا لَمْ تَحْفَظْ أَسْمَاءَنَا يَوْمًا
وَكَأَنَّ صِرْخَاتِنَا لَمْ تَصْعَدْ إِلَيْهَا
إِلَّا لَتَعُودَ إِلَيْنَا مَطَرًا مِنْ رَمَادٍ.
خَبَّأْتُ فِي شَقُوقِ قَلْبِي بَذْرَةً
وَقَلْتُ لِلْمَوْتِ:

لَنْ أَمْنَحَكَ آخِرَ مَا تَبْقَى مِنِّي؛
فَفِي دَمِي امْرَأَةٌ
كَلِمَا ضَبَقُوا عَلَيْهَا الْأَرْضَ
اتَّسَعَتْ كَالْأَرْضِ
وَكَلِمَا خَنَقُوا صَوْتَهَا
أُنْبَتَتْ فِي حَنْجَرَتِهَا أَلْفَ فَجَرٍ.

لَوْ كَتَبْتُ أَلْفَ آهٍ ..
لَمَا اتَّسَعَتْ الْآهَاتُ لِحَاكِيَةِ الْغِيَابِ؛
وَلَوْ حَفَرْتُ أَلْفَ قَبْرِ ..
لَمَا كَفَى التَّرَابُ لِدْفَنِ الَّذِينَ
مَا زَالُوا أَحْيَاءَ فِي ذَاكِرَتِي ..
وَلَا لِدْفَنِ الَّذِينَ رَحَلُوا
وَتَرَكُوا أَرْوَاحَهُمْ جَالِسَةً إِلَى مَوَائِدِنَا.

أَنَا لَا أَخَافُ أَنْ أَمُوتَ ..
بَلْ أَخَافُ أَنْ يَعْتَادَ الْعَالَمُ مَوْتَنَا؛
أَنْ تَمُرَّ جَنَازَتُنَا أَمَامَ نَوَافِذِهِ

فلا ترتجف ستارة ..
وأن يصير وجعنا خبراً قديماً
تتوسّده ضمائر القتلة
وتنام.

سأبقى؛
لا لأنّ الحياةَ رحيمة
بل لأنّ في قلبي ديناً للأموات
ولأنّ الذين سقطوا
لم يتركوا لي ترفّ الانكسار الأخير.

سأمشي ..
وفي يدي وردةٌ نبئتْ على قبرٍ بلا اسم
وفي صدري وطنٌ
لم يتعلم الموتَ بعد.

فلنُحفر القبور ..
ولنُقرأ الفواتح ..
وليأتِ الرحيلُ مثقلاً بكلّ أسمائه؛
لن تُدفن أحزاني الكاملة.

ما دام في الأرض جرحٌ
لم يقف أحدٌ ليشهد عليه
وما دامت امرأةٌ مثلي
قادرةً، من قلب جنازتها ..
على أن ترفع صوتها وتقول:

لسنا موتى...
إنما العالمُ هو الذي مات
يوم تعلم كيف يمرُّ بجنازاتنا
دون أن يبكي.

كلما صقلت قلبي، ازداد نزيهاً

كم صقلتُ هذا الفؤادَ
حتى غداً حاداً كالسيوف ..
وكلما سللته من غمد الحنين
عاد إليّ مثقلاً
بوجوه الذين أحببتهم
وبدمعي الذي لم يلتفتوا إليه.

وكم أحزنتُ هذا الليلَ
حتى بات يبكي على وسادتي
وكم انتظرتُ رجوعاً مريباً ..
كأنّ الغيابَ رسولٌ
أضاع الطريقَ إلى قلبي.

قلتُ: سيعودون...
لكنّ الأبوابَ، حين ننتظرها طويلاً ..
تتعلم كيف تغلق من الداخل
والذين نمحهم أعمارنا
يتركون لنا ساعةً مكسورة
ويمضون ..
كأنّ الوقتَ كله
لم يكن يوماً من أعمارنا.

أنا أشعلتُ النارَ حزناً ..
كلما دفنتُ خيبي في التراب
وكلما أطفؤوا في دمي نجمه
أشعلتُ من رمادها وطناً
لا ينحني.

لكنني ..
يا قلبي ..
تعبتُ ...
لا من الحرب ..
بل من الذين جعلوا الحبَّ منفى
والعودة وعداً مؤجَّلاً
والانتظارَ عمراً آخر
لا يكتب في دفاتر العائدين.

لقد عزم الرحيلُ ..
حتى تعبت آلامي من ملاحقته
ووقف الحنينُ على حافة صدري
كجندِيٍّ أخير ..
نسيَ لماذا يقاتل ..
لكنه يأبى أن يرفع الراية البيضاء.

فلا تسألوني لماذا تغيرتُ ...
أنا لم أُنْغَيرُ؛
أنا فقط انتزعْتُ قلبي من أيديهم
ومضيتُ به نحو الفجر ..
وكان ينزف ...

لكنه، للمرة الأولى
كان ينزفُ
في الطريق إلى الحرية.

عشقُ لا تطفئه النهايات

مَنْ يعشَقُ العَيْنَ ..
تُطفئه المسافاتُ ..
ويذوي إذا غابَتْ ملامحُ مَنْ يحبُ
كأنما الحبُّ نافذةٌ
يُغلقها المساء.

أما الذي يسكنُ القلبَ ..
فلا يموتُ إذا توارى وجهه
بل يستحيلُ جرحاً
كلما مرَّت عليه الروحُ
أزهرَ بالحنين.

أنا لم أُحبك كي أراك
أحببتُك كي أظللُ
إذا غبتَ ..
أبحثُ عنك فيَّ
وكي أُخبئَ صوتك المرتجفَ
في صمتِ السنين.

يا مَنْ تركتَ على ضلوعي وردةً
ونسيتَ أنَّ الوردَ يحفظُ عطره
حتى وإن ماتتْ يداه
كيف انتهيتَ ..
وما انتهى حبي؟
وكيف مضيتَ ..
وما تزالُ خطاكُ
توقظُ في دمي وجعَ الحياة؟

ما كان حيّ نظرةً عابرةً
حتى يبدّده الغياب ..
ولا حنيناً عابراً ..
حتى ينامَ إذا تعبْتُ من البكاء.

أنا امرأةٌ إذا عشقتُ
أودعتُ قلبها في قلبٍ من تهوى
فإنّ رجلَ الحبيبِ
ظلتُ نصفاً عنده ..
ونصفاً يتيهُ بلا رجوع.

فالعينُ تعشقُ ما تراهُ
والقلبُ يحفظُ من أحبّ
وما أقسى الحياةَ
حين يموتُ العاشقون
ويبقى الحبُّ
حيّاً في الذين أحبوا.

مرثيةُ امرأةٍ نسيْتُ كيف تعود

ما زلتُ أقتطعُ من دمي الأخير
لأرغمَ في الوجوه ما تصدعَ
وأرفعُ عن كتفِ اليتيم يدَ الأسى
وأردُّ إلى الطرقاتِ أسماءَ الذينَ
بعثرتهمُ الريحُ في الجهاتِ
فلم يجدوا من الأرضِ التي أحبَّوها
سوى أسمائهم ..
ومن الوطنِ الذي حملوهُ في قلوبهم
منفىً يضيقُ كلما اتسعتْ خطاهم.

ما زلتُ أشعلُ في النوافذِ شمعةً
مع أنَّ نوافذي انطفأتُ جميعاً
وأخبئُ الدفءَ بين كفيَّ
كي لا يرتجفَ طفلاً
تخلي عنه الليلُ في منتصفِ الحلمِ
ثم أعودُ إلى وحدتي مرتجفةً
كغصنِ زيتونٍ أدركَ ..
في شيخوختِهِ ..
أنَّ الجذورَ قد تموتُ واقفةً
وأنَّ الأشجارَ ..
مهما أزهرتُ
لا تجدُ من يبكي عليها
حينَ تتعلمُ الريحُ أسماءَها.

يا ربَّ ..
أيُّ ذنبٍ في قلبٍ
كلما منحَ الحياةَ شيئاً من نوره

عادَ إليه مكسوراً؟
وإذا غفرنا للذين أحببناهم
ما تركوه في أرواحنا من ندوبٍ
فمَن يغفرُ لقلوبنا
تلك الحروبَ التي خضناها في صمتٍ
كي لا ينكسرَ الذين أحببناهم؟
ومَن يلتفتُ إلى الجنديِّ الأخيرِ فينا
حين يعودُ من معاركِ الآخرينَ
ولا يجدُ وطناً يؤويه؟

لم أكنُ أخشى الرحيلَ ..
بقدرِ ما كنتُ أخشى
أن يغادرني الذين أحببهم
من غير أن يتركوا على بابِ الذاكرةِ
أثرَ إصبعٍ ..
أو رائحةَ قميصٍ ..
أو جملةً صغيرةً ..
تظلُّ معلقةً في الهواءِ
كأنَّ أحداً سيعودُ ليتممَها.

فبعضُ الغيابِ
ليس أن يمضي الذين نحَبهم
بل أن يبقوا في تفاصيلِ الحياةِ
أكثرَ مما كانوا فيها ..
أن نلمحَ وجوههم في ارتعاشِ الستائرِ
ونسَمعَ خطاهم في الممرَّاتِ الخاليةِ
ونعدَّ فنجانَ القهوةِ الباردةِ
كما لو أنَّ يداً ستأتي لتأخذه
وأن نتركَ في المقعدِ المقابلِ
مساحةً شاغرةً ..

لا يراها أحدٌ سوانا ..
لكنها تتسعُ كلَّ يومٍ
حتى تغدو أكبرَ من البيتِ
وأضيقَ من احتمالنا.

في آخرِ الخريفِ ..
رأيتُ ورقةً وحيدةً
تتشبُّثُ بالغصنِ الأخيرِ ..
كأَمَّ عجوزٍ تحرسُ بابَ بيتٍ
غادره أبناؤه إلى الأبدِ
ولا تزالُ تبقي المصباحَ مضاءً
لئلا يعودوا في الظلام.

كانت الريحُ أرفقَ بها منا؛
لم تنزعُها دفعةً واحدةً
بل ظلتُ تهزُّها برفقٍ
كأنَّها تختبرُ ما تبقى من إيمانها بالبقاءِ
حتى سقطتُ ..

لا لأنها نسيَتْ كيف تشبُّثُ
بل لأن الغصنَ الذي احتمتْ به
لم يعدْ قادراً على حملِ الانتظارِ.

هكذا تتساقطُ أعمارنا
لا حين تنفدُ فينا الحياةُ
بل حين نتعبُ من إخفاءِ انكسارنا
ونؤجِّلُ البكاءَ طويلاً
كي لا يرى أحدٌ
كم من الموتِ الصغيرِ
يسكنُ الأحياءَ.

يا ليت لي عمراً آخرَ

أستعيدُ فيه الذين مضوا
لا لأغيرَ ما حدثَ ..
ولا لأساوِمَ القدرَ على خساراتنا
بل لأقولَ لكلِّ من تركته يمضي
وفي عينيه بقيَّةُ عتابٍ:

لقد تعبْتُ من النجاةِ ..
ومن تمثيلِ القوةِ أمامَ الذين أحبَّهم
ومن إخفاءِ موتي الصغيرِ
كي لا يخافوا على حياتهم
ومن جمعِ شظايا قلوبهم
بيدينِ تترفانِ في الخفاءِ.

لقد حرصْتُ قلوبكم من الحزنِ
حتى نسيْتُ أن لي قلباً
وأن هذا القلبَ ..
الذي وسعَ أحزانَ العالمِ كلها
كان يحتاجُ، مرَّةً واحدةً ..
إلى يدٍ تستقرُّ فوقه
وتقولُ له:

لا بأسَ ..
ليس عليك أن تنقذَ أحداً هذه المرَّةَ
يكفي أن تبقى.

لكنني ..
حين التفتُ إلى الوراءِ
وجدتُ عمري واقفاً خلفي
كبيتٍ هجره سكَّانه ..
نصفُ بابِه مفتوحٌ ..
وعلى مائدته رسائلُ لم تصلُ

وأكوأبُ تركها الراحلونَ
قبل أن يردَ الكلامُ في أفواههم.

كانت الريحُ تقلبُ الصفحاتِ
كما تقلبُ أمُّ صورَ أبنائها
بعدَ حربٍ طويلةٍ ..
وكان الوقتُ ..

ذلك الجنديُّ العجورُ
جالساً في زاويةِ الغرفةِ
يحصي قتلاهَ بصبرٍ باردٍ
ثم يرفعُ رأسَهُ
ليتأكدَ أنَّ أحداً لم ينجُ
من ذاكرةِ المعركةِ.

فبكيْتُ ..
لا لأنَّ الذين أحببتُهم قد رحلوا
بل لأنني ..

لو عادوا جميعاً ..
لن أعرفَ أيَّ قلبٍ أفتحُ لهم؛
فقلبي القديمُ تهدَّم في غيابهم
وقلبي الجديدُ ..
الذي بنيته من أنقاضِ النجاةِ
لا يعرفُ كيف يستقبلُ العائدينَ
من دون أن يرتجفَ
كمن يرى موتاهُ يمشونَ
بوجوهٍ لم يفسدها الترابُ.

لم أعدُ تلك المرأةَ
التي كانت تخبئُ في ابتسامتها
شتاءَ العالمِ كله ..

وتمنح المازين دفئها
كأن قلبها موقد لا ينطفئ.

لم أعد تلك التي
إذا مرّ الحزن في الطريق
توقفت، ومدت إليه كتفها
وقالت: اتكئ ..
ففي العمر متسع لكل المتعبين.

لقد كبرت بما يكفي
لأفهم أن بعض الطيبين
يموت فيهم شيء كل يوم
ولا يلحظ أحد غيابه
وأن أقسى ما قد يحدث للإنسان
أن يظل جميلاً
بعدما تأخذ منه الأيام
كل ما كان يُعينه على الجمال
وأن يواصل منح العالم قلبه
بعدما صار قلبه
أبعد الأشياء عنه.

وإذا سألتكم عني الشتاء ..
فلا تسألوه إن كنت قد بكيت؛
اسألوه كم مرة رأيته
أعبر الثلج حافية الروح ..
وفي عيني تاريخ من المدن
التي انحنت كي لا تُمحي
ومن الأمهات اللواتي خبأن أسماء أبنائهن
في ثنيات الثياب ..
كي لا تنتزع الحرب آخر ما تبقى

من رآحتهم ..
ومن العشاق الذين ماتوا
على أرصفة الانتظار ..
وما زالت أيديهم ممدودةً
نحو قطارٍ لن يعودَ.

وقولوا لهُ إنني كنتُ امرأةً
منحتِ الآخرينَ ما استطاعتُ من حياةٍ
وحين احتاجتُ إلى قلبٍ
يُصغي إلي صمتها ..
لم تجدُ في الغرفة الباردة
سوى أنفاسها تتردّد على الجدرانِ
كأنها خطواتٌ غريبةٌ
تبحثُ عن صاحبيتها.

لم أكنُ أبكي لأن الحياة قاسيةٌ
بل لأنني رأيتُ الخرابَ
يمرُّ أمامَ الجميعِ
ولا يلتفتُ أحدٌ
ورأيتُ الحبَّ يُدفنُ تحتَ ركامِ العادةِ
والأحلامَ تُشيعُ بلا جنازاتٍ ..
والأشياءَ الجميلةَ تموتُ واقفةً
في عيونِ أصحابها ..
بينما يمضي العالمُ
كأنَّ شيئاً لم يكنُ.

رأيتُ الإنسانَ يعتادُ الفاجعةَ
حتى لا تعودَ الفاجعةُ خبراً ..
بل تصبحُ خبره اليوميَّ
ورأيتُ القلوبَ تتعلمُ الصمتَ

لا لأنها فقدت ما تقول ..

بل لأنها قالت كثيراً

ولم يسمعها أحد.

أما أنا ..

فسأترك نافذة التاريخ مفتوحة

لعل ربيعاً أضاع طريقه

يجيء ذات مساء ..

ولعل غصناً يابساً

يتذكر أن تحت قشريته

دماً أخضر لم يمث ..

وأن ما واره الخريف

لم يكن سوى بذرة

تخبئ في صمتها دهشة البدايات.

ولعل قلبي، بعد هذا العمر

من الفقد والتعب والانتظار

يصدق أنه لم يخلق

ليكون مقبرة للذين أحبهم

وأن الذين عبروا عتمة السنين

لم يتركوا وراءهم

سوى ظلال تفتش عن شمسها

وأن النجاة ليست أن نحمل موتانا

حتى آخر الطريق ..

بل أن نضعهم برفق

في ذاكرة لا تؤلمنا

كلما تنفسنا ..

ونترك للتراب أن يحفظ أسماءهم

وللتاريخ أن يفتح ..

ذات فجر ..

ما أُغلقَ من نوافذِ الحكاية.

وإن تأخّر الربيع ..
فلا تسألوا الأشجارَ عن أوراقِها
ولا تسألوا الأرضَ
لماذا لم تُزهَر
ولا تسألوا امرأةً
كيف عاشت بكلّ هذا الحزن
ولم تمت.

فبعضُ النساءِ
لا يُنقِذهنَّ الأملُ ..
ولا يُفنيهنَّ اليأسُ؛
يمضينَ، وفي صدورهنَّ
تنامُ مقابرُ العالمِ
ويبتسمنَ كي لا يرتجفَ
آخرُ الضوءِ في عيونِ الأطفالِ.
وإذا انحنى العالمُ ذاتَ يومٍ
تحتَ ثقلِ خطاياهُ
ونبشَ الأنقاضَ بحثاً عمّن أسندهُ
لن يجدَ سوى امرأةٍ
تلُمُّ وجهها من الترابِ
وتنفخُ في رمادِ قلبِها ..
لعلَّ جمرةً واحدةً
ما زالتَ تعرفُ اسمَ الحياةِ.
ثم تنهضُ...
لا لأنها نجتْ ..
بل لأن في الأرضِ وردةً أخيرةً
لم تتعلمْ بعدُ
كيف تموتُ.

وتمضي...

وفي يديها وردةٌ لا يعرفُ أحدٌ
كم من المقابرِ نبتتْ في جذورها
وفي صدرها شتاءٌ طويلٌ
لم يتعلم ..

رغم كلِّ شيءٍ ..
كيف يطفئُ آخرَ نجمةٍ
في سماءِ امرأةٍ
نسيَتْ كيف تعودُ.

أَمُوتُ قَلِيلًا كَمَا عَادَ الْمَسَاءُ

تَعَبْتُ ...

كَأَنِّي عَشْتُ عَمْرِي كُلَّهُ
لَأُبْلَغَ هَذَا الْخَرَابَ ..
وَكَأَنَّ قَلْبِي .. كَمَا رَمَّمْتُهُ ..
فَتَحَّ لِلْغِيَابِ بَابًا ..
فَعَادَ مِنْهُ أَكْثَرُ انْكَسَارًا.

تَعَبْتُ مِنْ أَمَلٍ ..
كَمَا خَبَّأْتُهُ فِي صَدْرِي
أَعَادُهُ إِلَيَّ الْمَسَاءُ
جَنَازَةً صَغِيرَةً.

مِنْ جِرْحٍ لَا يَنَامُ ..
وَمِنْ دَعَاءٍ ظَلَّ مَعْلَقًا
بَيْنَ السَّمَاءِ
وَقَلْبٍ لَمْ يَغْدُ يُؤْمِنُ بِالسَّمَاءِ.

كَمْ مَرَّةً ..
بَنَيْتُ بَيْتًا مِنَ الْحَنِينِ ..
وَتَرَكْتُ الْأَلَمَ بِلَا إِجَابَةٍ ..
وَكَمْ سُؤلاً تَرَكْتُهُ
دُونَ أَنْ يُنْجِبَ جَوَابًا...

وَزَرَعْتُ الرِّيحَانَ عِنْدَ نَوَافِذِهِ
وَأَشْعَلْتُ فِي عَتَمَتِهِ شَمْعَةً
ثُمَّ بَتُّ وَحْدِي
أَرْقُبُ احْتِضَارَ الضَّوِّ
فِي عَيْنَيَّ؟

لا أعرف...

كم غصناً من الياسمين
تركته على عتبة الانتظار
وكم رسالة كتبتها ولم أرسلها ..
وكم مرة همست للريح:
لعله يأتي...

وكم مرة ..
عاد المساء وحده ..
وفي يديه رائحة الغياب.

كنت أقول: غداً...

لعل هذا الحزن ينسى اسمي
ولعل قلبي يستريح قليلاً ..
ولعلك .. ذات نديم
تبحث عن امرأة
أحببتك أكثر
مما أحببت نجاتها.

لكن الغد كان يأتي
بوجه الأمس ..
وكانت المرأة ..
كل صباح ..
ترد إلي امرأة
أثقل من دمعها ..
وأصغر من أحلامها.
تعبت...

وليس ما يؤلمني

أَنْتَ لَمْ تَعُدْ ..
بل أني ..
رغم كلِّ هذا الخراب
ما زلتُ أتركُ لك
مكاناً على المائدة ..
وأصغي كلما تحرك الباب
وأخجلُ من قلبي
كلما كذَّبَ الغياب
ثم عادَ ينتظركَ.
تعبتُ...

أريدُ أن أنامَ
دونَ أن أراكَ في منامي
وأن أستيقظَ
دونَ أن أفتشَ عنكَ
في الجهاتِ الأربع ..
وأن أمرَّ باسمك
دونَ أن يسقطَ من روحي
شيءٌ يستحيلُ أن يعود.

أريدُ أن أكونَ أنا...
ولو لمرةً واحدة
أن أسترِدَّ المرأةَ التي كنتُها
قبلَ أن أحبَّكَ ..
وقبلَ أن أعلّقَ عمري
على مسمارٍ وعدٍ
وقبلَ أن أتعلّمَ
كيف يموتُ الإنسانُ واقفاً
ولا يلحظُ أحدٌ احتضاره.

تعبتُ...

فإنْ عُدْتَ يوماً ..
فلا تسألِ الأبوابَ عني ..
ولا تضعِ الياسمينَ على قبري
ولا تُقلْ: تأخَّرتُ...

فقد تأخَّرتُ
حتى صارَ قلبي
مكاناً لا يُزار ..
وصارَ الحنينُ
آخرَ ما تبقى من امرأةٍ
كانت تنتظرُك...

فثمَّة نساءٍ
يُمُتُّن من الانتظارِ مرَّةً ..
وثمَّة امرأةٌ
ماتت ألفَ مرَّةٍ وهي تنتظرُك ..
ثم نهضتْ
لتطفئَ آخرَ شمعةٍ
في بيتها.

أنا تلكَ المرأة...

التي لم تَعُدْ تنتظرُ أحداً ..
لكنها ..

كلما أغمضتْ عينيها
سمعتُ قلبَها القديمَ
يناديكَ
من تحتِ الركام.

تعبتُ...

وما عادَ فيَّ ..
ما يكفي لأحزنَ أكثر
ولا ما يكفي لأنساكَ.

فقط...

أريدُ أن يعبرَ الليلُ
دونَ أن أشعرَ
أنني ما زلتُ حيَّةً
بما يكفي
لأفتقدكَ.

حين اخترت الرحيل

تركْتُ بعضَ أحبَّتي طوعاً
لأنهم اختاروا طريقَ فِرَاقِي.
ولأنني لم أُرِدْ لقلبي
أن يكونَ آخرَ مَنْ يعلم
أنَّ الذين نحبُّهم
قد يفتحون لنا أبوابَ الرحيل بأيدينا
ثم يمضون...
كأننا نحنُ الذين اخترنا الغياب ..
وكأنهم لم يتركوا خلفهم
قلباً يلُمُّ شظايا المساء ..
ويحاولُ عبثاً
أن يُعيدَ ترتيبَ أحزانه.
تركُّتهم ..
وفي صدري جنازةٌ لا يراها أحد
وفي عينيَّ ليلٌ كلما أغمضتُهما
أضاءتْ فيه وجوههم
ثم انطفأت...
كأنَّ الذاكرةَ تشعلُ الموتى
لتذكِّرنا بأنَّ بعضَ الغياب
أشدُّ حضوراً من الذين بقوا ..
وأنَّ الحنينَ ليس أن نتذكرَ مَنْ رحلوا
بل أن نراهم في كل شيء
ونعرفَ أنَّ لا شيء
سيعيدهم إلينا.
ما أقسى الفراقَ
حين لا يكونُ ذنبنا سوى أننا أحببنا ..

وحين نمدُّ أيدينا إلى صرخةِ النجاة ..
ويعلو في أرواحنا عويلُ الرحيل
نكتشفُ أنَّ اليدَ التي ائتمناها على قلوبنا
هي التي أفلتتنا إلى الغرق
وأنَّ البحرَ لم يكن بعيداً عنا
بل كان يسكنُ في قلبِ مَنْ ائتمناه
على آخرِ ما تبقى من شواطئنا.

لم أتركهم لأنني نسيتهم ..
ولا لأن قلبي تعلمُ القسوة ..
بل لأنني تعبْتُ من الوقوف
على أبوابٍ لا تفتح ..
ومن سؤَالِ الغياب عن أسبابه
ومن جمعٍ ما يتساقطُ من روحي
كلما مرَّ اسمُ أحدهم في الذاكرة
ومن إخفاءٍ ارتجافٍ صوتي
كلما تظاهرتُ بأنني تجاوزتُ
ما زال يهدمُني في صمت.

تعبْتُ من أن أكونَ
اليَدَ التي تتمسكُ دائماً ..
والقلبَ الذي يغفرُ قبل الاعتذار
والنافذةَ التي تظلُّ مضاءةً
حتى حين ينسى العابرون
أنَّ وراءَ الزجاج
امرأةً تطفئُ أعمارها
كي لا يشعرَ الغائبون بالبرد.
تركتهم...
ومضيتُ كمن يحملُ وطنه الأخير
في حقيبةٍ من الدموع ..

كمن نجا من الغرق
لكنه ترك في قاع البحر
الأسماء التي كانت تعني له الحياة.

لم ألتفت إلى وراء ..
لا لأن الطريق لم يكن يؤلمني
بل لأنني كنت أعرف
أن نظرة واحدة
قد تعيدني إلى الخراب..
وأن بعض الأماكن
لا تغادرها حين نكرها
بل حين يصبح البقاء فيها
شكلاً آخر من أشكال الفناء.

وكما هبط المساء على نافذتي
أرهفت قلبي لصمت الطريق
لعل خطي الذين اختاروا الرحيل
تضل دروبها ذات حنين ..
وتعود ..

بعد أن أضناها الغياب
إلى عتبة القلب الذي تركوه موارياً
على آخر ما تبقى من الضوء.

لعل أحداً منهم يتذكر فجأة
أن هنا امرأة أحبته
كما لو أن الأرض ..

بكل اتساعها ..
لم تخلق إلا لتكون له وطناً
وأنها كانت تخبي له في قلبها
مكاناً لا تطاله الفصول ..

ولا تهدمه المسافات ..
ولا يطفئ مصابيحَه طولُ الغياب.

ولعله ..

حين يثقله الطريق ..
ويُدرِك أنَّ بعضَ الأبواب لا تفتح مرّتين
يتذكّرُ أنّه تركَ خلفه قلباً
كان يضيء له العتمة كلها
ثم مضى...
دون أن يلتفتَ إلى النور
وهو ينطفئ.

أُصغي...

ثم أَسْتحي من قلبي
كيف ما زال يُصغي
إلى الذين علموه الصمت
وكيف يتركُ نافذةً صغيرةً
مفتوحةً في جدار النسيان
مع أنَّ الریح التي دخلتُ منها
هي ذاتُها التي أطفأتُ مصابيحَه
واحداً بعد آخر.

ثم أبْتسم ..

وأُطفئُ المصباح
وأتركُ الليل أن يعرفَ وحده
أنني .. رغمَ كلّ ما حدث
ما زلتُ أحبّهم...
لأنّهم يستحقّون العودة
بل لأنّ قلبي لم يعرف
حتى في خسارته ..

كيف يحولُ الحبَّ إلى كراهية.

لكنني لن أعود
إلى مكانٍ اضطررتُ فيه
أن أشرحَ لقلبي
لماذا لا يريدون البقاء
ولن أطرقَ باباً
كنتُ أظنه بيّتي ..
ثم تعلمتُ من عتبتَه
أنَّ للغريبِ أحياناً
وجهاً نعرفه أكثرَ مما نعرفُ أنفسنا.

سأحبُّهم من بعيد ..
بين الغيومِ والرحيل ..
كما تحبُّ الأشجارُ طيوراً غادرتُها
تتركُ لها السماءَ مفتوحةً
ولا تغلقُ أغصانَها في وجه الريح
لكنها ..

حين يحلُّ الشتاء ..
تتعلمُ أن تُورِقَ للغياب
وألا تموتَ انتظاراً
لأجنحةٍ اختارتُ سماءً أخرى.

استراحةُ جنديٍّ مجهول

يا ليلُ ..
إنَّ روحي ..
تريدُ أن تستريحَ قليلاً
أن تجلسَ إلى جوار المساءِ
وتبكي ما لم يتسَخَّ له العمر
دون أن يسألها أحدُ:
مَن الذي ماتَ فيكِ هذه المَرَّة؟
أشتَهي مساءً لا ينتهي ..
ومقعداً خشبياً عند حافة الغياب
أجلسُ عليه كجنديٍّ مجهول ..
عاد من حربٍ لم ينتصرَ فيها أحد
ووضع خوذته فوق قبره
ثم نسيَ لأيِّ جهةٍ
كان ينبغي أن يموت.

لقد تعبْتُ من النجاة؛
من هذا القلب الذي كلما خسرَ أحداً
اتسعَ للقبر ..
وضاقَ بالحياة ..
ومن الذين دفنَتْهم في أعماقي
دون أن أُشَيِّعَهم
لئلا يسمعَ أحدُ
صوتَ الترابِ وهو يهبُطُ في صدري.

يا ليلُ ..
خذني إلى مكانٍ ..
لا يعرفُ اسمي ولا وجعي ..

فقد أتعبتني الأسماء؛
كلُّ اسمٍ أحببته
صار باباً موصداً في ذاكرتي
وكلُّ وجهٍ ودعته
تركَّ على روعي ملامح غيابٍ
لا تمحي.

أريدُ أن أخلع قلبي قليلاً ..
أن أضعه إلى جوارِي
كمعطفٍ ابتلَّ بالمطر
وأتركه يرتجفُ وحده
فأنا أيضاً أحتاجُ إلى مَنْ يواسيني
مَنِّي.

كم مرَّةً رتبْتُ وجهي أمام المرأة
وأخفيتُ خلف ابتسامتي
امرأةً كانت تنادي مَنْ رحلوا
بأصواتها كلها ..
فلا يعودُ إليها
إلا صدى صوتها الأخير؟
منذ أعوامٍ
وأنا أعيشُ هدنةً قصيرةً
بين فاجعتين؛
أسميها حياة ..
وأخشى أن أسمىها انتظاراً ..
فما أقسى أن يمضي العمرُ كله
وأنتِ تبقين في قلبكٍ مقعداً
لشخصٍ لن يأتي.
دعني أستريحُ قليلاً ..

على أنين الليل
لا أريد خلاصاً ..
ولا معجزة تعيد الذين مضوا ..
أريد فقط أن يمرّ المساء
دون أن يوقظ الموتى في ذاكرتي ..
وأن أنام مرةً
دون أن أرى أحلامي
تعود من الحرب
بلا وجوه.

وحين يستيقظ الصباح من نومه..
سأرتدي وجهي ..
وأخفي تحت جفوني
ما لم يستطع الليل دفنه.

وأجمع شتات صوتي ..
وأمضي بين الناس
كأنني لم أفقد شيئاً؛
فلا أحد يرى المقبرة
حين تكون محفورة في امرأة
ولا أحد يسمع الجندي المجهول
حين يبكي تحت ثيابها.

وفي المساء ..
سأعود إلى مقعدي الأخير ..
أصغي إلى الريح وهي تقلب أوراق العمر
وأترك رأسي للعتمة
كأنني أخيراً وجدت
استراحة لا يعقبها رحيل.

هناك ..

فوق قبرٍ ما تبقى مَيِّ ..
سأكونُ أنا...
والليلُ...
والعُيُوقُ...
والهجيرُ...

المرأةُ التي لم ينتظرها أحد
والتي انتظرتِ الجميع؛

أنا المرأةُ التي نجتُ من الحروب
لكنها لم تعرفُ
كيف تنجو من الذين أحبَّتهم
ولا كيف تعودُ من غيابهم
إلى نفسها.

الأحزان الكاملة

لم أعد أعرف:
أنا التي أبكي ..
أم أن في داخلي امرأة أخرى
ماتت منذ أربعة قرونٍ من الوجد ..
وما تزال دموعها تصل متأخرةً
إلى وجهٍ لم يعد وجهها؟

في هذا الليل ..
أخلع وجهي أمام مرآة الحنين ..
وأتركه معلقاً في عتمتها
كي لا يرى أحدٌ
كيف أتألم.

ثم أنام بلا ملامح ..
كأنني لم أكن يوماً
ابنةً لأحد ..
ولا حبيبةً لأحد ..
ولا امرأةً كان لها نصيبٌ
من حلمٍ بسيطٍ اسمه الحياة.

ما أقسى أن يكون للإنسان قلبٌ
لا يجد يداً تدفنه حين يموت!
أن يحمل جثته في صدره
ويمضي إلى نهاره كالمعتاد ..
يبتسم للغرباء ..
ويشتري الخبز ..
ويعتذر للطريق إذا تعثر خطاه
كأن شيئاً فيه

لم ينكسر إلى الأبد.

كنتُ أظنّ الحزنَ دمعَةً ..
حتى عرفتُ أنّه أن تنسى
لِمَ فتحتَ صفحاتِ الريح ..
وأن تضع فنجانين على الطاولة
ثم تتذكر...

وتنحني ..
كأنّ الغيابَ الذي لم ترهُ عيناك
قد وضع يده فجأةً
على كتفك.

وأن تسمع اسمك في الزحام
فتلتفت بقلبك كله
ولا تجد أحداً يناديك.

أما الآن ..
فلي قلبٌ لا يتسع للفرح
ولا يجرؤ على اكتمال الحزن؛
قلبٌ معلقٌ بينهما ..
كطفلٍ أضاع أمه في سوقٍ مزدحم
ويكتم بكاءه
لأن العابرين لا وقت لديهم
لطفلٍ آخر.

أحياناً ..
أتمنى لو كنتُ حجراً
على حافة طريقٍ لا يعرفني؛
بلا ذاكرة ..
بلا نافذة تُطلّ على المازين والغائبين
وبلا ماضٍ يعود كلّ مساء

ليجلس قبالي ..
ويحصي ..
بصوتٍ لا يسمعه سواي
ما أخذته الحياة مِنِّي ..
وما تركته كي أتذكر.

لكنني ..
حين يهبط الفجر ..
أفتح عينيَّ
وأعود إلى هذا الجسد
الذي لم يتعلم كيف يغيب
وإلى هذا القلب
الذي يواصل الخفقان
كأنه لم يتلقَّ ..
ذات يوم
الخبرَ الذي غيّر معنى الحياة.

يا ربَّ الأحزان ..
كيف ينجو المرء من كلِّ هذا
من دون أن يفقد الشيءَ الوحيد
الذي يجعل نجاته جديرةً بالحياة؟

أنا لا أريد معجزةً ..
ولا أريد للماضي أن يعود؛
أريد ليلةً واحدةً فحسب ..
ليلةً لا أفتش في عتمتها
عن يدٍ غابت ..
ولا أستيقظ في آخرها
وفي فمي طعمٌ وداعٍ
لم أقله لأحد.

لقد تعبْتُ من الأُحزان التي تبكي ..
ومن الأُحزان التي تتقن الصمت ..
ومن ذلك الحزن الذي لا اسم له؛
ذلك الذي ..

كلما ظننتُ أنني شُفيتُ منه
وكَلِّمًا أقنعتُ قلبي
أنَّ ما مضى قد مضى ..
وضع يده الباردة على كتفي
واقترَب من أذني
وهمس ..
كأنه لم يغادرني قطّ:
ما زلتُ هنا.

ليتني حجراً لا يعرف الحنين

ليتني حجراً ..
لا يوقظني وقع الغياب
ولا أمدُّ يدي إلى الباب
كلما مرَّ المساءُ
بأصوات الذين لن يعودوا.

ليتني حجراً ..
تقلبني الريحُ على وجهي ..
ويغسلني المطرُ من ذاكرةٍ
لم أعد أعرف:
أأنا التي عشتُها ..
أم متُّ في داخلي
وتركتني لأكمل الحداد؟

تعبتُ من قلبي؛
كلما حاصرتُ روعي ..
انفجرتُ في داخلي ألفُ آهٍ ..
وكلما دفنتُ اسماً ..
أزهر في صدري قبرٌ جديد.

ليتني شجرةً على طرف النسيان
لا تسأل الريحَ عن وجهتها
ولا تلتفت إلى الطيور
حين تعود من آخر الأرض
ولا تجد أعشاشها.

شجرةً لا تحفظ أسماء الراحلين
في حلقات جذعها ..

ولا تحصي الفصول التي مرّت
على نافذةٍ لم يفتح بابُها ..
تترك أوراقها للمواسم
كأنّ الخضرة لم تكن يوماً
وعداً بالبقاء.

ليتني حجراً ..
في قاع النهر
تهذبني المياه على مهل
وتأخذ مَيّ، قطرةً قطرة ..
حوافي التي طالما آلمتني
فأصير أملسَ كذكرى بعيدة
لا يجرحني لمسُها
ولا يدلني الحنين على طريق العودة إليها.

ليتني حجراً ..
على حافة النهر
لا أعرف أسماء الذين رحلوا
ولا أرتجف حين تمرّ الرياح
برائحة بيتٍ قديم.
تأخذني المياه من ضفّةٍ إلى ضفّةٍ
فتسقط من ذاكرتي الوجوه
وأمحو ..
مع كلّ شتاء
طريقاً كان يؤدي إليك.

ليتني لا أحنّ ..
لا أترك للباب نصف فتحة
ولا أصغي إلى الليل
حين يجرّ خطاك البعيدة

على درج قلبي.

أنا امرأة

كلما نسيْتُ شيئاً

أعادته إليّ رائحةً عابرة

وكلما قلتُ: انتهى

أزهرت في صدري شجرة

من تلك التي اقتلعناها معاً.

ليتني لا أرى العصافير

تعود إلى أعشاشها

ولا أفهم لماذا تقف شجرةٌ وحيدة

في حقلٍ احترقت أشجاره

ولا يؤلمني أن الربيع

يعرف طريقه إلى كل شيء

إلا القلوب التي انتظرت طويلاً.

لكنني أخاف الحجر؛

أخاف أن يمرّ وجه أمي في الحلم

فلا أمدّ يدي إليها

وأن يناديني صوتُ أحببته

فلا يرتجف الصمت في داخلي

وأن تنحني زهرةٌ للمساء

فأعبرها دون أن أفهم حزنها.

أخاف أن يصبح العالم خفيفاً

إلى الحدّ الذي لا أشعر فيه بشيء

وأن أفقد ..

حين أفقد الحنين ..

آخر خيطٍ يربطني

بكلّ ما أحببته ذات يوم.

لهذا سَأَبْقَى امرأةً؛
أَخْبَى في عَيْنِي ماءً لا يجفّ
وأَمْشِي ..
وفي قلبي مقعدٌ فارغ
تجلس عليه الغيابات.

وكلّما أَقْبِلُ المساء ..
أترك نافذتي مفتوحة
لا انتظارك لأحد
بل لأنّ قلبي ..
منذ رحيلكِ ..
لم يتعلم كيف يُغلق باباً
دون أن يظنّ
أنّه يُغلقه على آخر ما يحبّ.

ليتني حجراً...
فالحجر لا يعرف
أنّ اليد التي أفلتته
كانت آخر دفءٍ في الشتاء
ولا يقضي عمره
يبحث في برودة الأشياء
عن يدٍ تشبهها.

أما أنا ..
فكلّما حاولتُ أن أنساكِ
سمعتُ في أعماقي
شيئاً صغيراً يسقط؛
كأنّ قلبي ..
ورقةً بعد ورقة
يتعلم الخريف.

وكلما ابتعدتُ عنكِ
وجدتني أمشي
في الطريق الذي تركتني فيه
أحمل ظليَّ كأنه ظلّ امرأةٍ أخرى
وأبحث عن بيتٍ
لم يعد يعرف اسمي.

ليتني شجرةً على طرف النسيان
أسقط أوراقِي ولا ألتفت
وأترك للريح ما تبقى مِنِّي
فلا أسألها أين تمضي
ولا أرجوها أن تعود.

ليتني حجراً ..
فلا أحنّ إلى أحد ..
ولا يؤلمني غياب ..
ولا أفتح في الليل نافذةً
على عتمةٍ أعرفها.

لكتني امرأةً ..
كلما تمنّيتُ أن أصير حجراً
سمعتُ قلبي ينادي الذين رحلوا
واحداً واحداً ..
كأنه يخشى أن ينسى أسماءهم
إذا نام.

ولا أحد يعود.

فأبقى قرب النافذة
أضّم يديّ إلى صدري
وأصغي إلى المطر

وهو يغسل الطريق القديم.

ليتني حجراً...

لكنّ الحجر لا يعرف الحنين

ولا يعرف أنّ أقسى الغياب

أن يبقى الذين نحبّهم فينا

ونمضي نحنُ

ولا نجد الطريق

إلى أنفسنا.

اسألني أين كرامتي

لا تسألني أين وطني ..
اسألني أين كرامتي؛
فقد حفظتُ أسماء المدن كلها
ونسيتُ اسم المدينة
التي لا أهان فيها
حين أرفع رأسي.

لم أخرج إلى الحياة
كي أتعلم الانحناء ..
ولم أمش كل هذا العمر
من باب سيدٍ إلى باب سجان.

لا تسألني عن الحدود؛
عبرتها في جنازة أبي
وعبرتها مرّةً أخرى
حين عدتُ إلى البيت
فلم أجد سوى غيابه.

ولا تسألني عن الخريطة؛
خبأتُ قريةً كاملةً في جيب معطفي ..
وحين فتشوني عند الحاجز
لم يجدوا سوى حفنةٍ من التراب ..
ورائحة خبزٍ.

قالوا: هذا وطنك.
فقلتُ: فلماذا أخاف أن أتكمم فيه؟
قالوا: هذه أرضك.
فقلتُ: فلماذا أقف على بابها

كغريبةٍ تستجدي سقفاً لليلة؟

لا أريد وطناً
يعلق صورتي على جدرانهِ
ثم يكسر أصابعي
حين أشير إلى الحقيقة؛
ولا وطناً يمنحني اسماً في سجلاته
ثم يمحوه من ذاكرة أطفالي
ولا أرضاً تتسع لقبورنا
وتضيق بحريتنا.

أريد مكاناً ..
لا أخفض فيه صوتي خوفاً من الحاكم
ولا أخبئ لغتي
كرغيفٍ تخشى الأُمُّ عليه من الجوع
ولا أعلم ابنتي كيف تنجو بالصمت
بل كيف تقول: لا ..
وتظل واقفة.

لستُ ضلعاً في جدار ..
ولا ظلاً في صورةٍ جماعية
ولا اسماً يستدعونه
كلما احتاجوا إلى من يحمل
هزائمهم على كتفيه.

حين أقول: لا ..
لا تنقص الأرض شبراً
ولا يسقط نجمٌ من السماء
لكنّ عرشاً يرتجف في مكانٍ ما
لأن صوتاً اعتادوا انكساره
قرر ألا ينحني.

و حين أقول: كرامتي ..
لا أرفع شعاراً طلباً للتصفيق؛
إنما أسترده وجهي من يدٍ أرادت امتلاكه
وصوتي من فمٍ أراد التحدث باسمي
وعمري من انتظارٍ طويل
على أبواب الآخرين.

أنا أعرف الطريق إلى النهر ..
إلى شجرة التوت ..
إلى قبر أُمي ..
وإلى النافذة التي شهدت
أول حبٍّ وآخر وداع.
لكن ..

ما جدوى العودة
إن وصلتُ مكسورةً
أستأذن كي أكون نفسي؟

أريد وطناً ..
لا أبرر فيه ندوبي
ولا أثبت أنني ابنة أرضه
ولا أخفض رأسي
كي يتسع لي الطريق؛
وطناً أمشي فيه
كما تمشي الحقيقة إلى ساحةٍ مفتوحة
بلا خوفٍ في عيني
ولا اعتذارٍ على شفقي.

فأسألني عن المنفى الذي أحمله في صدري
عن اللغة التي قاومت كي تبقى ..
عن أطفالٍ الذين ورثوا ..

أسئله أكبر من أعمارهم
وعن يدي التي ظلت مفتوحة
رغم كل الأبواب المغلقة.

لكن لا تسألني أين وطني
كأنه دبوسٌ على خريطة
أو نشيدٌ نردده حين يأمرونا بالوقوف.

اسألني أين كرامتي؛
فليست كلُّ أرضٍ وطناً..
ولا كلُّ عودةٍ انتماءً..
ولا كلُّ حياةٍ نجاةً.

لن أسمي مكاناً وطناً
ما دمتُ أحتاج فيه
إلى أن أموت قليلاً
كي يسمحوا لي بالحياة.

في الشتاء الذي لم يأت بك

لم أكن أعرفُ
أنَّ للغيابِ رائحةَ الخوخِ والزيزفون ..
وأنَّ الثمارَ التي تنضجُ في البساتين
قد تخفي في حلاوتها
مرارةَ قلبٍ لم يعد ينتظر ..
ولا أنَّ امرأةً
قد تكونُ نهراً بأكمله
ثم تمضي عمرها عطشى.

كنتُ أخبئُ وجهك في المساءِ
وأتركُ للريحِ نافذةً مواربةً ..
لعلك تأتي
من جهةٍ لم يعد فيها أحد
من طريقِ نسيِ العابرين
وظلَّ يحفظُ وقعَ خطاك.

طال المساءُ ..
والشوارعُ التي مشيناها معاً
صارَتْ تعرفُ خطوتي
ولا تعرفني ..
كأنني امرأةً أخرى
تفتشُ في ظلالِ المدينة
عن وجهها الذي تركته معك.

يا أنت ..
كم مرَّةً متُّ في الحلم
كي أراك ..
وكم مرَّةً استيقظتُ

لأَجَدَ الصَّبَاحَ أَشَدَّ وَحْشَةً
من موتٍ صَغيرٍ ..
ولأرى سريري يتسعُ لغيابك
أكثرَ مما يتسعُ لجسدي.

كان بيننا شيءٌ يشبهُ الحبَّ
شيءٌ لم يتعلَّمِ الأسماءُ
كعصفورٍ يضربُ جناحيه
على زجاجِ قلبي
ثم يسقطُ عند النافذة
فلا هو بلغَ السماء ..
ولا نحن فتحنا له بابَ النجاة.

أحببتُك ..
كما تحبُّ الأرضُ مطرها الأخير؛
بكلِّ شقوقِها ..
وبذلك الخوفِ القديمِ
من أن يأتيَ الربيعُ
ولا تجدَ في صدرِها زهرةً
تستحقُّ الضوء.

وحين افترقنا ..
لم أبلِّك.
وضعتُ كفيَّ على قلبي
كأنِّي أغلقُ باباً
على طفلةٍ ما زالت تصغي
إلى وقعِ خُطى أبيها في الممرِّ
ولا تعرفُ أنَّ الليلَ قد طال
وأنَّ البابَ لن يُفتح.

ثم مضيتُ ..

أجمعُ ما تركته في
من فصولٍ مبتورة ..
ومن كلماتٍ ظَلَّتْ معلقةً في الهواء
كمعاطفٍ نسي أصحابها المحطات
ومضوا إلى بلادٍ
لا تعرفُ أسماءهم.

قلت:

سنلتقي حين يأتي الشتاء.
وجاء الشتاء، يا حبيبي ..
وجاء المطر ..
وانحنى الأشجارُ تحت ثلجها
وعاد العابرون إلى بيوتهم ..
وأضأت النوافذُ دفئها للعائدين
وبقيتُ وحدي
أحرسُ في العتمة مكاناً لخطاك.

وكلما سمعتُ المطرَ ..
مددتُ يديَّ إلى الفراغ
كأنَّ الغيابَ قد يرقُّ قلبه ذات ليلة
فيردُّ إليَّ يديكَ ..
أو يتركَّ على عتبةٍ روجي
رسالةً صغيرةً
تقولُ إنَّ الطريقَ لم يبتلعك تماماً.

لكنَّ يديَّ ظللتا فارغتين ..
وكبرَ في صدري نهْرٌ
لا تعبزه الطيور ..
ولا تبلغُ ضفتيه سفينة؛
نهْرٌ كلما حاولتُ اجتيازه ..

رَأَيْتُ وَجْهَكَ عَلَى الْمَاءِ
وَعَرِقْتُ فِي الضَّفَّةِ الْآخَرَى.

أَتَعْرِفُ مَا الَّذِي يَخِيفُنِي الْآنَ؟

لَيْسَ أَنْ أُنْسَاكَ

بَلْ أَنْ أَتَذَكَّرَكَ يَوْمًا

دُونَ أَنْ يَرْتَجِفَ قَلْبِي

أَنْ يَمُرَّ اسْمُكَ فِي رَوْحِي

كَاسِمِ رَجُلٍ غَرِيبٍ

وَأَنْ أَكْتَشِفَ أَنَّنِي نَجَوْتُ مِنْ غِيَابِكَ

لَكِنِّي لَمْ أُسْتَعِذْ

تِلْكَ الْمَرْأَةُ الَّتِي كُنْتُهَا

قَبْلَ أَنْ تَحَبِّكَ رَوْحِي.

إِنْ سَأَلُوكَ عَنِّي ..

فَلَا تَقُلْ إِنَّنِي نَسِيتُكَ

وَلَا تَقُلْ إِنَّنِي مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ.

قُلْ إِنَّ امْرَأَةً

كَانَتْ تَضِيءُ لِلرَّاحِلِينَ مَصَابِيحَ الطَّرِيقِ

وَحِينَ رَحَلْتُ عَنْهَا

نَسِيتُ أَنْ أَتَرَكَ لَهَا ضَوْءًا.

سَأُطْفِئُ النَّافِذَةَ ذَاتَ مَسَاءٍ

وَأَدْعُ الشِّتَاءَ يَكْسُو الزَّجَاجَ بِثَلْجِهِ؛

فَقَدْ تَعَبْتُ مِنْ تَدْفِئَةِ الْغِيَابِ

بِمَا تَبَقَّى مِنْ جَسَدِي

وَمِنْ إِقْنَاعِ جَمْرَةِ الْقَلْبِ

أَنْ يَدَأَ سِتَائِي

لِتَلْتَقِظَهَا قَبْلَ أَنْ تَنْطَفِئَ.

لَنْ أَنْتَظِرَكَ بَعْدَ الْآنِ.

غير أن الشتاء ..
كلما عادَ إلى أبوابِ المدينة
سيجدُ مقعداً فارغاً إلى جوارِي؛
لا لأنك ستعود ..
بل لأن بعضَ الذين نحُبُّهم
يرحلونَ عن حياتنا
ويظُلُّونَ مقيمين
في الأماكن التي علّموا قلوبنا فيها
كيف تكونُ البيوت
وكيف تصيرُ البيوتُ ..
بعدهم ..
منافي صغيرة.

وسأظلُّ أخافُ على تلك المرأة التي كنتُها
أخافُ أن ألقاها ذاتَ مساءٍ
عند آخر الطريق ..
حافيةً من الأمل ..
تحملُ وردةً يابسةً بين يديها ..
وتسألني:
لماذا تركتني كلَّ هذه السنوات
أنتظرُ رجلاً لم يأتِ؟

يا حبيبي ..
ليس أقسى الغيابِ أن ترحل
بل أن تتركَ في الروح باباً
مفتوحاً على احتمال العودة
ثم تمضي الأعوامُ
ولا تهبُ الريحُ ذلك الباب
شجاعة الانغلاق.

وحين يأتي الشتاء المقبل ..

لن أعدَّ المطر ..
ولن أصغي إلى الطرقات
ولن أبحث عن ظلك بين العابرين.

سأمضي ..
وفي قلبي حديقةً تعلمت أخيراً
أن تزهر دونك
وإن ظلت في أقصى زواياها
شجرةً وحيدةً
لا تعرف كيف تتخلص من الخريف.

فبعض الغياب لا ينتهي ..
حين يرحل أصحابه ..
بل حين يكف القلب
عن اختراع المعجزات للعائدين ..
ويكتشف ..

بعد رحيل العمر ..
أنَّ الشتاء الذي انتظرناه معاً
كان آخر ما تبقى
من ربيعنا.

وصيةُ المطرِ الأخير

إنْ لم تأتِ ..
ستموتُ دموعي حافيةً
على عتباتِ الطريق
ويُخَيِّمُ الشتاءُ بأوتاره السوداءً
على النافذةِ التي خَبَأْتُ فيها
آخرَ ارتجافٍ لاسمكِ.

سأسرحُ ضفائرَ الربيعِ من دمي ..
وأتركُ للريحِ ما تبقى من عطري
فلا الوردُ يعرفُ كيفَ ينجو من ذبوله
ولا قلبي تعلَّم
كيف يشيعُ قتلاه
في مواكبِ الرحيلِ ..
دون أن يدفنَ ما تبقى منه
معهم.

إنْ لم تأتِ ..
سأطوي صراخَ أربعةِ قرونٍ ..
وأهدمُ جدارَ الأربعاءِ في منديلٍ ..
وأخبئُه في جيبِ الغيابِ؛
لعلَّ عابراً يعثرُ على جغرافيتي
ويعرفُ أنَّ امرأةً
أضاعت وطنها في رجلٍ
ثم قضت عمرها
تبحثُ عن حدودِها.

لن ألعنَ التاريخَ ولا الرحيلَ ..
فالريحُ لا ذنبَ لها

إنِ اقتلعتُ شجرةً
كانت جذورها تُصلِّي للسماء؛
لكِنِّي سأعذبُ الربيعَ
لأنَّه أزهرَ مرَّةً في عينيك ..
ثم تركني
أحصي موتَ الزنابقِ
في حدائق لا يزورها أحد.

يا أنت ..
يا آخرَ ما نجا من حرائقِ روحي
كيف أقنعُ هذا القلبَ
أنَّ الأبوابَ لا تتذكرُ الأيدي
وأنَّ الخطى التي نحُبُّها
قد تمحوها الثلوجُ
دون أن تلتفتَ إلى الوراق؟

لقد أحببتُكَ ..
حتى صار لي من الحزنِ
ما يكفي لأورثَ البحرَ ملوحته ..
ومن الصمتِ
ما يجعلُ المقابرَ
تصغي إلى خطابي.

وإن لم تأتِ ..
فلن أتركَ للأرضِ وصيةً؛
سأتركُ قصيدةً
تنامُ على كتفِ الريح ..
وتحملُ إلى العالمِ
ما عجزَ قلبي عن قوله
وكلَّ ما لم يتسعَ له
عمرٌ من الانتظار.

وكلما قرأتها امرأة ..
أحسّت أنّ شيئاً من قلبها
كان هنا ..
وأنّ غياباً قديماً
ما زال يطرقُ بابها.

وحين أرحلُ ..
لا تبحثوا عنيّ في التراب؛
فأنا في قطرةٍ مطرٍ
تتردّدُ قبل أن تسقط
وفي وردةٍ تخفي شوكتها
كي لا تجرحَ يداً عابرة
وفي نافذةٍ تضيءُ آخرَ الليل
لشخصٍ لن يعود.

أما أنتَ ..
فإذا أضعتَ الطريقَ إلَيَّ ذاتَ شتاءٍ
فتذكّر:

كانت هنا امرأةٌ
تشعلُ قلبها كي ترى وجهك
وحين انطفأتْ ..
لم يبقَ في العتمةِ
ما يدلّك عليها.

وحدهُ الحبُّ سيبقى ..
لا لأنه انتصر ..
بل لأنه ..

حتى في هزيمته ..
ترك في هذا العالم
ضوءاً لا يعرفُ كيف يموت.

وصيةُ امرأةٍ لا تركع

حين أموتُ ..
سأموتُ واقفةً ..
كقصيدةٍ لم تركع
إلا لتقبلَ ترابَ وطنها.

لن أتركِ وردةً على قبري؛
ازرعوا مكانها شجرةً
كي يتعلّم العابرون
أنّ الجذورَ لا تموت.

أنا امرأةٌ ..
عبرت الحروبَ قلبها ..
وعلى كتفها نامَ الحزنُ قروناً ..
لكنها لم تُسلمَ رايتها للريح
ولم تطفئَ في صدرها
آخرَ نجمةٍ للحرية.

إذا متُّ ..
فلا تبكوا؛
ارفعوا صوتي فوق الجبال ..
واجعلوا من صمتي صرخةً ..
ومن دمي طريقاً
لا يعودُ منه العابرون
إلى العبودية.

فأنا لم أُخلق
لأكون حكايةً حزينةً في كتاب
بل لأكون السؤالَ

الذي يُقلق الطغاة ..
والقصيدة التي تبقى واقفةً
حين تنحني الراياتُ
وتسقط العروش.

وإذا سألوا عني ..
فلا تقولوا: امرأةٌ ماتت؛
قولوا:

هنا مرّت امرأةٌ ..
وحين ضاق بها العالمُ
اتسعت للحرية ..
وحين أرادوا لها قبراً ..
كتبت من موتها
بدايةً وطن.



يا وطناً يسكن في
رغم كل ما أبعدني من مسافاتٍ وجراح،
ما زلتُ أسمعُ نفسك في كل شيءٍ أكتبه،
في رائحة التراب،
في خطوة طفلٍ الذي لم يعد،
في نهر يجري في داخلي،
وفي نجمة تسقط على جفن الغربة.

لستُ أبحث عن وطنٍ آخر،
بل عن ذلك الوطنِ أضعه في قلبي،
كأنه ما زال ممكناً.
وما زال الحلم، رغم كل شيء،
يقاومُ الموت.

